نبال قندس





حكاية غياب ومطر

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الطبعة الرابعة



حكايـة غيـاب ومطـر

رواية

نبـال قنـدس



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: تشرين الأول/اكتوبر 2014 م - 1435 هـ
الطبعة الثانية: كانون الأول/ديسمبر 2014 م - 1436 هـ
الطبعة الثالثة: آذار/مارس 2015 م - 1436 هـ
الطبعة الرابعة: أيار/مايو 2015 م - 1436 هـ

ردمك 978-614-01-1339-8

تــوزيـــع



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

لوحة الغلاف للفنانة الفلسطينية **تمام الأكحل**
تصميم الغلاف: **سامح خلف**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

الإهـــداء

بعد أعوام عدة

قد تقرأ هذا الكتاب

لأطفالك

لا أدري حتى هذه اللحظة

إلى أي أم سينتمون

قل لهـم :

المجنونة كانت تحبني كثيراً.

جاءت إلى القلب على غيمة

وتركت خلفها

الكثير من المطر.

عُد حبيبي

قبل أن تتحول السماء

إلى لوحة رمادية

وتهاجر طيور النورس

إلى بلاد الدفء

قبل أن تسقط

آخر ورقة خريفية

عد حبيبي

قبل المطر

وزهر اللوز!

(1)

أكتب الآن وأنا أعرف أن ساعي البريد قد غاب للأبد، وأن زمن الرسائل الورقية انتهى مذ اقتحمت التكنولوجيا بكل سطوتها وجبروتها تفاصيل حياتنا، مذ صرنا معلقين بالهواتف النقالة، والبريد الإلكتروني الذي جمَّد عواطفنا، وقضى على الكثير من اللهفة، أكتب وأنا أعرف أن الحكايات التي أثقلنا بها الغيم الأبيض لن تُمطر علينا واقعاً أجمل، وأن الذين رحلوا لن يعودوا، والذين أكلتهم الغربة لا يغريهم الوطن بعد أن سلبتهم الغربة عقولهم ببريقها وبذخها.

وبعيداً عن كل شيء، عن الغربة والغياب والراحلين، هدأ الكوكب، أو ربما هذا الحي الريفي الذي صار كوكبي بعد أن هزمتني المواعيد التي لم تنجب لي قصة الحب التي انتظرتها طويلاً، والحكاية التي حلمت بها، والفارس الذي رسمت صورته في مخيلتي. وبين أوراقي وفي قصائدي وأدق تفاصيلي، الحكاية التي أردت أن أحياها، لا أن أكمل ما تبقى من حياتي وأنا أحلم بها.

الغرفة هادئة كما اعتدتُ كل مساء، لا أحد يشاركني طقوس المساء بين الجدران الأربعة التي تحيط بي، فبعد تناول طعام

العشاء يتفرق أفراد العائلة كلّ إلى «وكره» كما أقول لهم دائماً على سبيل المزاح، فأمي تُعد الدروس التي ستقوم بشرحها لطلبتها غداً، وأبي ينشغل بمتابعة الأخبار التي لا جديد فيها بعد أن غرقت برائحة الدم، والبارود.وأما الإخوة والأخوات فكلّ وشأنه الذي يختلف باختلاف اليوم.

وحده صوت الموسيقى الدافئة «kiss the rain» يدق أبواب الذاكرة، وصوت صرير القلم الذي يتعارك مع الصفحات البيضاء الهاربة من حمى البوح، والشموع المعطرة بنكهة اللافندر، يشاركونني كهفي الصغير هذا.

ما زال ضوء غرفتها مشتعلاً كشمسٍ تتوهج في صباحٍ صيفي، منذ انتقالنا لهذا المنزل لم ألمحها إلا من خلف الستائر البيضاء التي تغطي نوافذ غرفتها، ولم أسمع من شرفتها إلا أنغام الموسيقى الحزينة، التي تنبعث في وقتٍ متأخر من المساء، ولا تتوقف حتى الفجر على وتيرة واحدة.

أعرف في قرارة نفسي أن وراء الأبواب الموصدة حكاية عميقة علّمتها العزلة، والصمت، واجتناب ثرثرة البشر، والجارات السيئات اللواتي يجتمعن كل صباح على فناجين القهوة والنميمة، كمجلس الدولة الأعلى لبحث أمور الحي التي من المفترض أن لا تعنيهن، لكن الفضول القاتل يحرضهن على عدم تفويت جلسة من هذه الجلسات التي تكسر الروتين الذي تسير عليه أيامهن في هذا الحي الهادئ.

أنا لا أراها، لكني أشعر بحركتها في أروقة البيت جيئة وذهاباً،

وأشعر بالنسيم يتسرب من الشرفة المفتوحة مقتحماً الغرفة ليعبثَ بأطراف ثوبها الطويل الذي تكاد تتعثر به في مشيتها.

ما زالت سراً مدفوناً في بئر عميق، حتى ليخيَّل إليَّ أحياناً أنها لا تحدث الجدران كما أفعل، لأن «للجدران آذان» تنصت إلى كل صغيرة وكبيرة، وقد تشي بالحكاية لجدران البيوت المجاورة.

أكتب إليكَ من الوطن، من مدينتنا، وشوارعنا عسى أن تحمل الكلمات أشواقي إلى بلاد الغربة الباردة التي تسكن فيها، أكتب إليك الآن وأنا أحاول ترتيب أبجدية كادت تفلت من يدي، وتطيح بي عن عرشها، بينما اصطاد الغيم على سرير الوحدة والحنين. أحاول تجاهل رحيلك، وغربتك، ومسافات كبيرة امتدت بيننا من دون أن نملك حولاً ولا قوة لتغيرها كما تهوى أنفسنا، ومن دون أن نملك في جعبتنا شيئاً يسد ظمأنا للقاء عاجل يجمعنا على أرض الوطن.

أين أنتَ الآن؟ أية بقعة من هذه الأرض تحتضنك؟

هل تتذكرني بين وقت وآخر، وتهمس لنفسك «اشتقت جنونها»، أم أنك انشغلت بالعمل وفوضى الانتقال إلى بلد غريب لا يُشبهك.

هل حدثت البحر عني (كما وعدت)
أم أنك ألقيت بي إلى اليَّم
وأصدقاؤك؟
هل رأوا المرأة المجنونة في عينيك
أم سمعوا كلامي الذي يجري على لسانك؟

(2)

مرَّ الصيف وها هي تقف على نوافذ الذاكرة تودع صيفاً محملاً بالكثير من العابرين، تراقب المارة الذين كانوا جزءاً من حكاية لا تنتهي إلا لتبدأ، ولا تبدأ إلا لتنتهي. تكنس الغبار من رفوف قلبها، تلمع الأيقونات التي احتفظت بها هناك على جدران روحها لكل الأشخاص الذين أحبتهم فتفرقوا فوق الأرض وتحتها.

حكاية بدأت من هناك من الأفق البعيد، مشبعة بالكبرياء والعزة، بالفرح والمعاناة، بالحزن والبهجة، بالانتظار، باللهفة، بالفراق، باللقاء، بالغياب، بالبكاء.

تبتسم ساخرة مما آلت إليه حالها حين تعود بذاكرتها للأعوام الماضية، فقد حملت هذه السنين أجمل أحلامها ورحلت تاركةً خلفها أنثى مهزومة، وحيدة في ركنٍ لا يلجه البشر. تملأ ساعات فراغها الطويلة بالكتابة في مفكرتها السوداء ما تجود به قريحتها، وذاكرتها، ووجع يفرك جسدها فيتحول إلى كلمات تنهمر على الورق كما المطر، تجد حولها بعض الأقلام، والقصاصات الورقية المتناثرة على أرضية الغرفة، والكثير من الذكريات، والجثث التي تملأ ثنايا ذاكرة أتعبتها طيلة خمسة وعشرين عاماً.

تتساءل ما الذي أوصلها إلى عالم العقلاء بعد أن كانت أنثى

الجنون والجرأة والطموح؟

كيف طرق اليأس بابها هي التي كانت تراقص الأمل وتداعب المستحيل في كل خطوة من خطواتها؟

أيعقل أن يأخذنا الحب والحزن إلى هذه النقطة البعيدة كل البعد عن الحياة؟ أن يجعلنا أمواتاً في جسد حي ما زال يطلب الطعام والشراب، يتعب ويمرض ويتأثر بما يحيط به؟

كم مرة أرعبها اسم هذا الرجل الذي ما زال محفوراً في ذاكرتها كوشم على الرغم من كل سنوات الغياب؟

كان في حياتها أمراً استثنائياً، حدثاً غير عادي، حكاية خالدة، عرساً وطنياً، وبطلاً تهتف باسمه الجماهير حتى يومنا هذا. كيف للأبطال أن يموتوا وأسماؤهم تزين أسماء الشوارع، وجدران البيوت، وألقاب دفعات الخريجين، وشعارات الثورات، والحركات الوطنية.

وهو تحديداً كيف تنساه وإرثه الأدبي يتربع بكل فخر في مكتبتها العتيقة، الروايات، والقصص، والأبحاث، والصحف التي كان يكتب بها. وتلك الصحيفة الملعونة التي طبعت اسمه على صفحتها الأولى بالخط العريض.

كان أمر الإطاحة به عن عرش ذاكرتها أمراً عصياً، لكن رائحة جثة الحب لم تترك لها سبيلاً آخر. ضاقت ذرعاً بامتلاء حياتها به، ولتنصف نفسها من مقصلة الحب الذي ترك في روحها ندوباً مستديمة، وجراحاً لا تندمل، ستكتبه في رواية لتمنحه خلوداً أدبياً، وموتاً استثنائياً آخر.

تتساءل أحياناً عن البطل الحقيقي لحكايتها تلك. من المنتصر؟ أم أنه القدر هو الذي انتصر عليهم جميعاً حين فرقهم فوق الأرض، وتحت ترابها. فلم يعد يجمعهم إلا ماضٍ مضى ولا سبيل للعودة إليه، حتى لو اجتمعت كل قوى الأرض.

لغاية اللحظة لم تدرك ولن يفعل أحدٌ آخر، فبعد انتهاء الحكاية ذهب كل واحد منهم في سبيله، وتركوا لها شبكة العنكبوت وتخلوا عن خيوطهم بعد أن تخدرت أطرافهم لفرط تمسكهم بها، هدهم التعب فألقوا أطراف الحكاية على عتبات بابها لترتبها كما تشاء، وبما يسمح به جنونها.

لم تدرك أيضاً من كان أكثرهم حظاً وأعظمهم غنائم. أم أنهم متساوون في الخسارة والجرح والألم، من دون أن يغلب أحد الآخر ويفوقه في معاناته.

(3)

بتذكر آخر مرة شفتك سنتا

بتذكر وقتا

آخر كلمة قلتا

وما عدت شفتك

كانت الأغنيـة تنبعث مـن شـرفتها بنرجسـية تامـة، كأن فيروز تغني لأجلها فقط، فالأغانـي والقصائد والروايات ليسـت ملكاً لمن كتبها، بل لكل واحد قرأها فشـعر أنها موجهة إليـه، وكتبت لأجله، فطابقت حاله تمام المطابقـة. وهكذا فإن هذه الأغنيـة على ما يبدو ملك هذه الغريبة التي تحتضن سراً ما لا تبوح به لأحد.

كانت جحافل الأوراق الصفراء تتسـابق أيضاً لتقف بباب بيتها كأن حفلاً موسيقياً أقيم هناك على شـرفها، حفلاً لم تدعُ إليه بشراً، بل طبيعـة جاءت من أقصـى الأرض لتكون بقربها فـي هذا الصباح الخريفي.

أيقظنـي صـوت أمـي مـن شـرودي لأدرك أننـي تأخـرت عن العمـل، وأطلـت الوقـوف ببـاب الجـارة الأكثر غموضـاً فـي حيِّنا، فتابعـت طريقـي إلـى العمـل ودوامة مـن الأفـكار تدور في رأسـي

المتعب، وفضول عميق يقرع الأجراس في عمق قلبي لأعرف ما وراء ذلك الباب الذي ظل مغلقاً في وجه أهل الحي لعشرة أعوام متتالية.

لم تكن تستقبل فيها الزوار، ولم يمر عليها أصدقاء ولا أقارب كأنها «مقطوعة من شجرة»، لم تخرج يوماً للتسوق، ولم تعد يوماً حاملة حزمة أكياس من البقاله، لم تتشاجر مع الجارات مثلاً على الماء الذي تنظف به باب بيتها فيوسخ الشارع الذي يلعب به الصغار، ويعودون إلى أمهاتهم بأحذية متسخة تحول ساحة البيت إلى لوحة من طبعات الأرجل الطينية، ولم تقم عرساً صاخباً يعكر صفو المساء ويمنع طلاب المدارس والجامعات من التركيز في مذاكرتهم، ولا عزاءً حزيناً يبكي أهل الحيِّ فيه، كانت وحيدة وهادئة كأن لا شأن لها بكلِّ ما يفعله البشر.

الصمت المنبعث من أرجاء منزلها يكاد يقتلني، وحتى الموسيقى الهادئة التي أسمعها من حين لآخر تزيد من شدة فضولي لاختراق ذلك الباب الذي ظل يحول بيني وبينها.

ستقول وأنت تقرأ رسالتي هذه:

- لأبعد، أبعد حد أنتِ مجنونة.

ولن أكترث لأنني في عالم يتنافس فيه البشر ليبدو عقلاء، أحاول قصارى جهدي أن أحافظ على جنوني، وروح الطفلة الشقية المشاغبة التي ما زالت تركض بمرح في دهاليزي الداخلية، وتقطف زهر الياسمين من حديقة البيت لتضعه في مزهرية أنيقة على مكتبها الخشبي، وتلعب الكرة مع أطفال الجيران.

- حدسي يقول أن هذا الصمت صمت الخيبة.

استطيع استنشـاق رائحة حزنها من خلف جدران القوقعة التي تغلقها حول نفسـها. أراها كل مسـاء فـي الحلم تحكي لي. أسـمع صوتها بارداً وكئيباً يشـبه البكاء. صدقني حدسـي لا يخطئ في مثل هذه الأمور.

- دعيها وشأنها.

إن كان إغلاق بابها حزناً فلماذا تريدين إشـعال حرائق ذاكرتها من جديد؟

لماذا تسعين للعبث بجمرات ذاكرة همدت نارها، فتنفثين فيها الجحيم؟

لا أجـد لأسـئلتك أجوبـة فربمـا تتضح بعـض الإجابـات بعد الانتهاء من هـذا الكتـاب أو ربمـا في ذلـك الوقت سـيتوقف زمن الأسئلة التي تحتاج إجابة.

(4)

كان صخب الصديقات في نافذة الرسائل لموقع التواصل الاجتماعي «فيسبوك» دافئاً بما يملأ رتابة هذه الليلة الخريفية. الصديقات اللواتي تمتد أيديهن لانتشالنا من أقصى غابات الحزن، وتشاركننا الرقص في ساحات الفرح.

الصديقات طوق نجاة ينقذنا من الخيبات والانكسارات الكبيرة التي غالباً ما تبدأ بحبٍ كبير، وتنتهي بجنازة فراق، لا يسير خلف نعشه أحد. هذه الأوطان الصغيرة التي يمنحنا الله كي لا تأكلنا الغربة في الوطن الكبير.

ما زلت أذكر حتى اليوم الصباحات التي كنا نبدأها معاً في الحرم الجامعي، أكواب القهوة والأحاديث الصغيرة التي نتبادلها قبل محاضرة الثامنة صباحاً، الأجفان الناعسة والمتذمرة أحياناً من تعب الدراسة وضغط المشاريع التي تقع على كاهلنا طيلة العام. والترف الذي نكافئ به أنفسنا مرات عدة في الأسبوع بعد انتهاء الدوام، كنزهةٍ، سيراً على الأقدام من باب الحرم الجامعي وحتى آخر نقطة نستطيع المسير إليها، أو اجتماع في أحد المقاهي لتناول وجبة طعام فاخرة تسد الجوع الذي صبرنا عليه طيلة اليوم.

الصباحـات الماطرة عالقة في الذاكرة بشـكل أكبـر من غيرها، المعاطف السـميكة، وصديقتي التي كانت تطوق ذراعي وتبدأ بفرك يديهـا الباردتين بمعطفي لاكتسـاب بعض الـدفء. خطواتنا العجولة بين «اسـتراحة» الجامعـة ومبنـى الكلية لتجنـب المطـر الغزير الذي يغرقنا ويتسـبب بحمى لبعضنـا أحيانـاً وأكثر من هـذا لحماية كأس القهـوة مـن الاختـلاط بالكثير مـن المطـر البـارد. حتـى لا يُفقِدها الدفء الذي ننشده في مثل هذه الأيام.

كنت أقف مشدوهةً لحديث صديقتي عن «كانون الفحم» الذي يجمع عائلتها وعائلة عمها حوله في الأيام الماطرة، فلطالما تمنيت أن تسـمح لنا أمي باسـتبدال المدفئة الخاصة بنا بـ«كانـون» نجتمع حوله نشوي الكستناء ونعد القهوة، وكنت أقابل بالرفض دائماً فأمي مصابة بفوبيا من نوع ما، فهي تخشى احتراق المنزل، وتخشى علينا من الاختناق أو الإصابة بمرض الربو.

أعود للانهماك في الحديث مـع الصديقات بعد أن تنبهت إلى أنني سرحت بخيالي بعيداً:

- كلماته رائعة.

أعرف أنه يختلف عن الآخرين.

تنقصنـي إطلالتـه، حضـوره البـاذخ، ابتسـامته المتألقـة كآذان الفجر، وجوده الفوضوي في حياتي لأكتمل به.

تضيف بعد تنهيدة نشـعر بها رغم المسـافات التـي تفصل بيننا وبينها:

- يدهشكن هذا التعلق!!

أنا أريده. أريد أن أشبع منه قبل أن تقطفه يد الغياب التي باتت تطال أي شيء نحبه ونخشى فقده. أريد أن أكتمل بحبه. أن أكون لمرة واحدة عاشقة مجنونة لا يعنيها من هذا العالم إلا حبيبها.

أنا لست بحاجة إلى رجل من هذا العالم بقدر ما أحتاج إلى عالم في رجل. رجل يشعرني أنني أهم ما يملك. يجيب حين يُسأل عن أمنيته فيقول «هي». رجل يستمع إلى تفاصيلي وأحاديثي حتى السخيفة منها باهتمام تام كأنها صفقة أو خبر عاجل أو أسطورة تاريخية.

تصمت لتسمع ردود أفعالنا على هذا التعري من الأسرار التي كانت تُغطي قلبها، فيأتيها الرد اللاذع من الصديقة التي وضعت قلبها جانباً كي لا يورطها في الحماقات. فهي لم تتذوق حتى اليوم ثمار الحب، ولم تعرف كيف ترتبك نبضات القلب. فكيف تضحي بجنة من راحة البال والاستقلال مقابل فاكهة قد لا تكون فاكهة الخلود، وقد تعرضها للعنةٍ أبدية لا ترياق بعدها أبداً.

فنحن حين نحب، نترك الحياة خلفنا لنعبر زمناً لا يشبه السابق على الإطلاق، نعيش أيام الحب في تحليق دائم وعند الفراق نخلع أجنحتنا فلا نحن نستطيع أن نعود إلى الزمن الأول قبل الحب، ولا نستطيع التعايش مع هذه الأيام الخاوية التي نستيقظ فيها وحدنا على صوت المنبه بعد أن كنا نستيقظ على صوتٍ هارب من أوتار الكمان.

مراوغ

«التُجار والمقاولون وشوفيرية التكاسي مش لازم تأمنيلهم».

كوني حذرة! إن شخصاً يعمل في التجارة ويعرف حنكة التسويق وأساليب الإقناع والتأثير على الآخرين سوف يقنع أيّاً كان وسوف يعرف كيف يسوّق نفسه!

لديه القدرة الكافية لإقناعك بشخصه، وأفكاره، واقتلاعك من جذورك ليزرعك في حديقته الخاصة.

ويسود صمت آخر، فلا مجال لأي استزادة بعد جواب كهذا، فقد كان جوابها مقنعاً لعقلٍ مفكر. وكانت دائماً تأتينا بالجواب الشافي والرد القاطع والمحايد. كلماتها وآراؤها الثاقبة ومبادؤها لا تتغير مع الزمن.

«أنا مصاحبة هبايل... هبااااايل»

هذا ردها في كل مرة ترى فيها واحدة من الصديقات عالقة في حفرة الحب، وتصارع للنجاة بما تبقى من قلبها الذي تهدمت سفنه، وغرقت مراكب نجاته وضل عن شطآنه وموانئه. هذا الرد الذي لم يختلف باختلاف قصص الحب، فهي دائماً تظن أن صديقاتها أفضل من أي شخصٍ يقعن في حبه، وأنهن لسن بحاجة للحب، فهناك الكثير من الأشياء الجميلة والآمنة على حد قولها، فالحب ليس آمناً. كانت تقول لي دائماً، العواطف للعائلة والأصدقاء المقربين جداً جداً، لا توزعيها على الجميع، يكفي أن توزعيها على عشرة أشخاص طيلة حياتك؛ «افرغي عواطفك على حيوان أليف، قطة مثلاً، فهي لن تؤذيك ولن تحطم قلبك

وستدخلين الجنة بفضلها».

لكنني أكره القطط وأخافها كثيراً، لي ذكريات سيئة معها، أول قطة كرهتها حين كنت في السادسة من عمري قفزت عن سور البيت وهاجمتني بأظافرها وسببت لي خدوشاً، والثانية سرقت عصفوري الصغير الذي أهداه لي عمي، اختطفته وهربت به بعيداً ليكون وجبة غداء لها، كنت صغيرة وبكيت لأسبوع كامل على العصفور، وبالرغم من أن عمي أحضر لي عصفوراً آخر إلا أنني ظللت أكره القطط ولم أنسَ فعلة تلك القطة البشعة.

الحب يجعلك مترددا، اعتمادياً، مشتت التفكير، هذا عدا عن وجع القلب والهم الذي لا يُنسى ولا يُمحى مع الزمن، فالمشاعر الجياشة والفائضة تغلق مناطق الحكم المنطقي في الدماغ، ولهذا أنت لا ترى عيوب الآخر، وإن رأيتها تتجاهلها لأنك تحبه على الرغم من أنك لن تتقبل هذه العيوب في أي حال آخر ومن أي شخص آخر غير الذي تحبه.

تقول أيضاً «أنا اتعجب من قدرة الناس على الوثوق بشخص ما إلى هذا الحد، ثم إن أخطر شيء نقوم به هو ربط مصدر سعادتنا بآخر يملك جهاز تحكم بمصيرنا، بابتسامتنا، وبدقات القلب، ومواعيد النوم، والاستيقاظ وغيرها».

الحب الذي ينتهي بالزواج هو أحد ابتكارات الروائيين ومنتجي الأفلام، أي أنه خدعة سينمائية، والواقع يختلف كثيراً عن الأفلام، فالبشر يتغيرون ما بين ثانية وأخرى، والقصص الواقعية التي تنتهي بالزواج حسب مشاهداتي نادرة جداً، والزواج ليس

النهاية كما نعتقد جميعاً، فمع الوقت تبدأ التفاصيل التي أغرقتنا في الحب بالتلاشي فلا يعود قلبك يخفق إذا رأيت من تحب لأنك اعتدت رؤيته، ولن تشتاق إليه لأنك تراه كثيراً - حد الضجر أحياناً -، الزهور التي يفاجئك بها لا تظل تحمل الدهشة بعد الزواج، وفنجان قهوة في مقهى بعد غياب لم يعد حدثاً ضخماً يستحق التدوين في دفتر المذكرات، ماذا يبقى بعد كل هذا؟ فقط تلك الأمور التي تم بناؤها بمنطقية تامة وعقلانية، وإذا لم توجد أشياء كهذه كأن يكون بين الزوجين اختلافات في المستوى الاجتماعي، أو الثقافي، أو العلمي، تبدأ الكثير من المشاكل وبالتالي الندم. فإما الطلاق وإما الاحتمال مُكرهين لأجل الأطفال إن وجدوا.

ظل الصمت يملأ نافذة الرسائل، فالرد الأخير الذي أوقف اندفاع صديقتنا المبتلاة بقلبها ظل عالقاً في متصفحي الإلكتروني لمدةٍ لا بأس بها من دون أن تجد واحدة منا كلمة تحاجج بها.

كان عليّ أن أقطع ستارِ الصمت الذي خلفه رحيلهن بتدوين ما علق بي من ذكريات هذا اليوم الطويل، لكن الموسيقى انبعثت من جديد لتذكرني أن في الشرفة المقابلة لشرفتي امرأة غريبة تخوض... كل مساء عراكاً جديداً مع ذاكرتها وتشعل قبس نار في ذكريات لا تنتهي.

حاولت تَتَبُّع طيفها خلف الستائر البيضاء، كنت أرى حزنها يتجول عارياً من رفقة صديق في الشارع الذي يفصل ما بين منزلي ومنزلها، وقلبي يتخبط بين الضلوع كطائر ذبيح ليعانق هذا الحزن الذي لا يجد بين أهل الحي يداً تربت على كتفه، وتمسح عن

وجنتيه دمعاً يطير من العيون كفراشاتٍ هاربة من يديّ طفلٍ شقي.

لا أدري كم من الوقت قد مر وأنا أقف محدقة في الستائر البيضاء التي ترفرف على إيقاع الموسيقى، ونسيم الخريف قبل أن تقطع أمي بيدها التي استقرت على كتفي وصوت خطواتها الناعمة صدى أفكاري.

جاءت كما عودتني كل ليلة تنثر سحر جناحيها على قلبي المنكس. جاءت بقلبها الرحيم الذي لا يعرف طعم النوم العميق مذ ذاق طعم الأمومة. تستيقظ في الليلة الواحدة عشرات المرات لتطمئن على أطفالها الذين لا يكبرون في عينيها أبداً، ويظلون على الرغم من تتابع الأعوام صغاراً يركضون في ساحات البيت بين أشجار اللوز والزيتون التي تترتب في صفوف متجاورة، وحين يتعبون من اللعب يضعون رؤوسهم الحالمة في حجرها لتقص عليهم الحكايات القديمة التي حفظتها عن أمها وجدتها أو ابتكرتها من وحي خيالها.

أمي امرأة مذهلة، تستطيع فعل أي شيء، اعتبرتُها بطلتي منذ الصغر، لم تكن أماً وحسب، بل أختاً وصديقة وكل شيء، كنت أعود إلى المنزل كل يوم فأجلس إلى جانبها وأحدثها عن كل ما حدث معي خارج البيت، تستمع لي وتناقشني في مشاكلي، تساعدني على إيجاد الحلول المناسبة. هي أول من فتح أمامي آفاق القراءة، كانت تشتري لي الكتب والقصص، حتى أنّي ما زلت أملك حتى اليوم جميع أعداد سلسلة «أشهر عشر قصص عالمية للأطفال». أول قصيدة حقيقية حفظتها كانت قصيدة محمود درويش

«سجل أنا عربي» ساعدتني أمي في حفظها كاملة، وألقيتها في الإذاعة المدرسية ذات صباح. من أمي تعلمت كل أغاني فيروز، وحفظت أغاني أم كلثوم، وعبد الحليم، وتعرفت أيضاً إلى شيماء الشايب، ونجاة الصغيرة، وماجدة الرومي.

يبدو أنها لاحظت الضوء المتسرب من فتحة الباب السفلية الضيقة، ففتحت الباب بهدوء لتطمئن عليّ، وبسبب شرودي لم ألحظها إلا عندما صارت على مقربة مني.

- بعدك صاحية؟ يا بنتي بكفي سهر، نامي بدك تعرفي تصحي على شغلك بكرا.

- حاضر يا عمري، تكرم عيونك، رح أنام، أنت روحي ارتاحي تصبحي ع خير.

- وأنت من أهل خير الله يرضى عليكِ.

رحلت بهدوء كما جاءت، وتركتني أغرق في محاولات تجاهل الموسيقى التي تصلني محملة بما يشبه البكاء.

سأغلق عيني الآن لأنسى كل الذين يبكون خلف الأبواب المغلقة، ويشتكون من البرد والوحدة والضجر، المشردين الذين لم يجدوا منزلاً يلجأون إليه، وكل الذين لم يجدوا أماً طيبة تعد لَهم العَشاء، وتحكي لهم حكاية ما قبل النوم.

(5)

تجمع خصلات شعرها الطويل المتناثر على كتفيها بأصابع احتفظت على الرغم من الزمن بنعومتها، تلك الأنامل التي كانت تكتب له آلاف الرسائل والقصائد، وترتب أوراقه المتناثرة على المكتب القديم، وتحمل مخطوطات رواياته ومقالاته إلى المطبعة حين يكون منشغلاً بشأنٍ آخر، والأهم من هذا كله تعزف في ليالي الحب والحرب مقطوعات موسيقية تبشر بغدٍ أفضل، ذلك الغد الذي كان يرسمه لها في قصصه القصيرة ومقالاته التي يقرأها على سمعها من ورق الجرائد الهش في كل صباح يجمعهما حول فنجان قهوة وأغنية لفيروز وإن حالفهما الحظ بعض المطر.

تدقق في المرآة المغبرة المعلقة على الحائط العاري، إنها المرآة الوحيدة في هذا المنزل الخاوي. تمسح بأصابعها الباردة وجه المرآة بحثاً عن وجه جديد تحت الغبار المكدس. لكن الوجه ذاته يطل عليها في كل مرة، الوجه الذي جاء من خلف ليالي السهر ودموع الانتظار التي تذرفها كل مساء وهي تقلب دفاتر مذكراتها أو تعبث بالصور القديمة.

ياآآه كم غيرتها الأيام وكم أكلت من ملامحها الأعوام. خمسة وعشرون عاماً وثمانية أشهر، تذكّر عدد أعوام الغياب يصيبها برهبة

كبيرة، لكنها خمسة وعشرون عاماً رغم كل شيء.

خمسة وعشرون عاماً مضت فوق ملامحها بخطواتٍ ثقيلة لم ترحم هشاشتها، ولا طيبة قلبها، وعفويتها. خمسة وعشرون عاماً لم يأبه ببكائها أحد، ولم ينتظرها في خلالها أحد، ربع قرنٍ لم تسمع فيه كلمة واحدة من تلك التي اعتادت سماعها منه في كل مرة تنثر فيها خصلات شعرها لتحاول ترتيبها بشكل أفضل يليق بعينيه العسليتين اللاتي تناظرانها من بعيد كأن لا أحد أمامه سواها، بفستانها الأسود القصير وقامتها الممشوقة وجسدها المتناغم كمعزوفة موسيقية، وملامحها الطفولية وشعرها الطويل.

خمسة وعشرون عاماً ينسكب فيها الوجع على غيابه، تستحضر روحه وتتمنى أن تعود يوماً واحداً إلى ذلك الزمن لتقول له أنها تحبه كثيراً وتغفر له زلاته وحماقاته وإهماله، لتعتذر له عن كل مرة أغضبته بها أو أثارت فيها غيرته، أو تجاهلته، وتجاهلت حبه وعاطفته التي أغرقها بها فحاولت الهرب والنجاة.

وتبقى أمنيات لن تتحقق فالزمن الذي يمضي لا يعود، والغائب الذي يرحل لا يعود، والأمنية التي لا تتفتح في موسمها لا تتفتح في موسمٍ آخر.

كل هذا الغياب

كل هذا الغياب يا يافا

كل هذا الحزن أبى أن يغادرك قبل أن يترك أثره على الوجه الجميل ليرسم مع كل عام من أعوامك الخمسين تجعيدة، وهالة سوداء تحت عينيك اللاتي أغرقناه في زمن ما يبدو الآن بعيدا كأنه

حلم لم يكـن. كل هذا الحـزن زادك وحدة واغترابا فـوق اغترابك، تركت كل شـيء وراءك وما التفت لأحد، غادرت أصدقاءك وأهلك وحياتك لتغلقي على نفسـك باباً لن يطرقـه إلا الفضوليين الذي لا يهتمون بألمك بقدر اهتمامهم بإشـباع أفواههم بالـكلام. ومجلاتهم وصحفهم بالقصص المثيرة.

لم يزدك الحزن على غياب من رحلـوا إلا هدوءاً ووقاراً. ربع قرن من مواسـم الحزن والغياب، ربع قرن من فناجيـن القهوة التي ترتبها على الطاولة الخشـبية في البيت الريفي كل صباح في انتظاره كأنه لم يغب أبداً.

كانت تسـكب القهوة فـي فنجانيـن وتجلس على كرسـيها في انتظـاره كمـا كانـت تفعـل قبل خمسـة وعشـرين عامـاً فـي مقاهي العشـاق التـي كانـت تحتضنهمـا فـي زمـن كان وجـود مثـل هـذه المقاهـي قليلاً، فصـارت اليـوم أكثر مـن أن تُعد وتُحصـى، تتزاحـم وتمتد في الشـوارع وتتنافس فـي خدماتهـا وبهرجتها لتجـذب أكبر عـدد من الزبائـن، وتحقـق أعلى نسـب مـن المبيعات مـن دون أن يكون للمشـاعر حيز في كل هذا، فقط مظاهر خدّاعة، وإلفة مزيفة. هي فعليا مقاهٍ لكنها بلا عشاق حقيقيين.

خمسـة وعشـرون عامـاً مـن الوحـدة والضجـر والموسـيقى والمنافي التي تطحن تحت أضراسـها ما تبقى من لمعان في عينيها، المنافي التي وقفت عاجزة أمام قلبهـا المتضخم بحبه وحب الوطن والأصدقـاء الذين ظلـوا يجتـازون الحدود ليعبـروا فـي ذاكرتها من دون تأشيرة سفر.

كل شـيء باهت في هذا المنـزل المريب الـذي لا يفتح أبوابه إلا للصبـي الـذي يزودهـا بمسـتلزمات البيـت الأساسـية مـن مواد تموينيـة وغيـره. يتركهـا خلـف بوابـة الحديقـة الحديديـة الصدئـة فتأخذها بعـد رحيله، وتعـود أدراجها لتفـرغ... الأكيـاس في ثلاجة المطبخ وخزائنه.

كل شـيء في هذا المنزل باهت إلا صورته التي تحرص على تنظيفها مرات عدة في اليوم الواحد من غبار لا يملك وقتاً للتواجد أصلاً، الصـورة التـي رافقتها طيلة سـنوات غربتها، وبعدها سـنوات عزلتها ولـم تسـتطع التخلص منها أبداً. ثم كيف تتخلص منها وهي التي اختارتها بعناية من بيـن صوره القليلة لتقـوم بتكبيرها ووضعها في إطارٍ ذهبي.

طـلاء الجـدران والأثاث العتيـق الذي يعـود إلى عصـر قديم، الملابـس المكدسـة فـي الخزانـة الخشـبية التـي تمتـد علـى طـول جدار الغرفـة بدفاتها الثلاثة وبابهـا الأخير المتأرجح مـا بين الثبات والسـقوط، لأن مفصله العلوي فقـد البراغي التي تثبتـه فلم تصلحه حتـى الآن، الرسـائل الصفـراء القابعة فـي صندوقها الـذي حصلت عليه هدية مـن جدتها حيث كان أحد هدايا زفـاف الجدة، وله قيمة عاطفيـة كبيرة فوضعت فيـه الرسـائل التي ما زالـت تحمل بصمات أصابعه وكانـت تحمل رائحـة عطره، الأرضيـة المبلطة بالسـيراميك على الطراز الحديث تقريباً والذي اسـتُحدث على المنـزل في أثناء التصليحات التي قامـوا بها قبل قدومهـا إليه أي قبل عشـرة أعوام، أواني الطهو التي تعود لجدتها التي سـكنت في هذا المنزل وماتت

في انتظار جدها العائد من الحرب والذي لم يعد.

حتى ذاكرتها تندرج تحت هذه اللائحة التي لم تتغير طيلة ربع قرن.

إلى متى يا يافا... إلى متى سوف تبكين هذا الغائب الذي لن يعود والأيام التي ابتعدت عنك حتى ابتلعتها غياهب النسيان.

إلى متى سيظل حاضراً في قلبك وستظل الحكاية تنبض كأنها لم تمت قبل أعوام.

إلى متى سيظل صوته عالقاً بين أصابعك التي كانت تغلق فمه في كل مرة يمطرك فيها بالشعر والغزل وأنت تغادرين مكتبه في مقر الصحيفة بعد زيارة قصيرة تطمئنين فيها على أحواله.

- هسسسسسسسسسس.. اخفض صوتك

ليس الوقت ملائماً للكلام المعسول، لنا الغد

الغد الذي رسمته لي

لنا كل الغد للحب، دعنا ننتهي الآن من هذه الحرب.

(6)

كنت أحث الخطى نحو العمل في صباح لم يكن لي كما أحب، فقد اعتدت الابتسام للصباحات النقية التي تحمل على أجنحتها أصوات العصافير، وضوء الفجر الأبيض، ورائحة الياسمين المنبعثة من حديقة المنزل لتملأ قلبي حباً ندياً أنثره في قصيدة قصيرة أو طويلة، حسب الحالة الكتابية، أدونها في دفتر ملاحظاتي. أنا ابنة الصباح وصديقته الحميمة التي تستيقظ باكراً لتفتح باب شرفتها وتلوح لنحلاتٍ يتراقصن بين الزهور لجمع الرحيق.

كانت الليلة الماضية مرهقة بشكلٍ لا طاقة لي به، فبعد خروج والدتي من غرفة نومي حاولت تنفيذ وصيتها بالخلود إلى النوم، لكن عينيّ ظلتا معلقتين بسقف الغرفة، تبحثان عن إجابات لأسئلة تتكاثر في مخيلتي التي لا تهدأ. كنت في حالة مبهمة ما بين الاستيقاظ والنوم، أقلب في عقلي ما قالته الخالة سلمى - صديقة أمي المقربة وجارتها - عن الجارة الغريبة.

الخالة سلمى خمسينية بوجه مستدير بدأت تظهر عليه التجاعيد، متوسطة الطول وممتلئة الجسد قليلاً، عيناها خضراوان واسعتان تخفيان سحر الصبا، شعرها قصير حتى الكتف ما زال أسوده يطغى على أبيضه - يبدو أنها ورثت هذه الصفات عن

عائلتها، فقد قالت لي مرة أن جدتها ماتت ولم يكن في شعرها شعرة بيضاء واحدة -، ترتدي أغلب الوقت عباءة سوداء أو ثوباً مطرزاً وتلف شعرها بمنديلٍ أبيض، تقضي وقتها ما بين بيتها وبيتنا، خاصة في فترة العصر حيث تجلس في الحديقة برفقة أمي تتبادلان الأحاديث وتشكو كل واحدة منهن للأخرى هموم بيتها وأولادها، الخالة سلمى بعكس والدتي لا تعمل، فزوجها لم يسمح لها بممارسة أية مهنة بعد الزواج، وقنعت هي بقراره هذا فلازمت المنزل. أما أمي فهي تعمل معلمة في مدرسة القرية الابتدائية التي تبعد كيلو متر واحد عن المنزل.

- يافا.

اسمها يافا وهي حفيدة أم أحمد صاحبة المنزل، تلك العجوز الطيبة. لم تقصر يوماً مع أحد من أهل الحي، فأنا أذكر أننا كنا نجدها حاضرة في كل فرح وعزاء وتجد خيرها يسبقها إلى بيوت الفقراء والمحتاجين الذين يمنعهم كبرياؤهم من مد أيديهم بالسؤال. لقد عاشت سنوات حياتها كلها في هذا المنزل، ودفنت حين توفيت في مقبرة القرية في واحد من قبرين متجاورين، أوصت أن يحفرا إلى جانب بعضهما لتُدفن في القبر الآخر جثة زوجها الحاج أبو أحمد - إن وجدت -، فقد انقطعت أخباره في حرب حزيران 1967 ولم تعرف عنه من يومها شيئاً. عندما توفيت كنت في الثامنة عشرة من عمري، وكانت يافا تصغرني بعام أو عامين، ذهبتُ يومها إلى العزاء لأنني كنت أحب الحاجة أم أحمد، وأثر فيّ موتها كثيراً. كل القرية بكت عليها. يومها انهارت حنان

وهي تـودع جثـة أمها ونقلـت إلى المستشـفى. أمـا يافـا فقد ظلت تنشـج وتبكي طيلة أيـام العزاء، كانت تـزور جدتها كثيـراً، تأتي في العطل الصيفيـة وفي أغلب عطـل نهاية الأسـبوع لتبقى مـع جدتها وتعوضها عن وحدتها في بقية أيام الأسبوع.

منـذ وفاتها لم نـرَ أبناءهـا، أحمد سـافر إلـى الخليـج بعد أن أنهـى دراسـته فـي بيـروت ليعمل فـي شـركة مـن شـركات النفط، حضر مراسـم الدفن وبقي طيلة أيام العزاء ثم عاد لغربته. أما حنان «أم يافـا» كانـت تأتـي وحدهـا كل صيـف لتلقـي نظرة علـى البيت والحديقـة، ثم تسـتأجر بعـض العمـال ليقومـوا بترميـم الأعطال إن وجدت، وبعض الإصلاحات للأبواب والشـبابيك والعناية بالحديقة بعدها تغادر سريعاً، من دون أن يتسـنى لأحد مجالستها، أو زيارتها وهذه الزيارات انقطعت منذ عشرة أعوام تقريباً، فلم نعد نرى حنان أبداً.

ظلت الأفـكار تدور في رأسـي طيلة فترة طريقـي للعمل حتى كدت أقع ضحية حادث سـير، بينما كنت أقطع الشـارع في وسـط المدينة حيث الزحام والغضب، لقد ظل السـائق غاضبـاً -رغم أني اعتـذرت لـه- يشـتم ويصـرخ كوحـشٍ مفتـرس حتـى اختفيت عن ناظره.

ستقول يا صديقي ما اعتدتُ سماعه منك:

- كم مـرة حكيتلك ديـري بالـك ع حالك، كونـي بخير حتى نلتقي.

وسأردد عليك الجواب ذاته:

- لا تقلق، «عمر الشقي بقي».

العمل مرهق هذه الأيام. تتكدس أمامي عشرات الصحف اليومية، رائحة الموت تنبعث منها لتعكر هذه الصباح أكثر. لا أدري من المتحذلق الذي أطلق على هذا الموت اسم «الربيع العربي»، فالربيع الحقيقي يبدأ من عقولنا حين نملك خطة لما سيأتي، في الوقت الذي يعرف فيه كل فردٍ منا واجبه تجاه وطنه، حين يخاف على وطنه كما يخاف على بيته ويحفظ تراث وطنه من آثار ومكتبات ومساجد وكنائس كما يحفظ ممتلكاته الخاصة. حين يرتجف قلبه على ابن وطنه كما يرتجف قلقاً على أبنائه الذين ولدوا من صلبه. أما هذا التخبط الأعمى والموت الذي يتلقفنا في كل ساحة وحي وبيت لن يقودنا إلا إلى الجحيم. الجحيم الذي لن نخرج منه من دون خطة مدروسة للإصلاح، للتغيير، للانتقال للأفضل.

لا أريد أن أعكر مزاجكَ حين تقرأ رسالتي هذه، كل ما في الأمر أنني افتقدك وأشعر بحاجة دائمة لإفراغ ما في قلبي لك وحدك، لأنك أكثر من يفهم.. يفهمني!

بالمناسبة، لقد مررت منذ أيام على المكتبة لأحضر الكتاب الذي اقترحته عليّ مؤخراً. لم أقرأه حتى الآن لأنني لم أجد الوقت والمزاج الملائمين لقراءة كتاب كهذا. سوف أقرأه في أقرب فرصة متاحة وسأكتب لك رأيي فيه كالمعتاد.

آآآآه صحيح، لم أكمل لك حكاية يافا

تقول الخالة سلمى أنها قدمت إلى القرية قبل ما يقارب عشر

سنوات في سيارة أجرة. وصلت في صباح ماطر وكانت ترتدي معطفاً أسود وقبعة صوفية سوداء. لم أعرف من هي هذه المرأة وفي البداية ظننت أنها حنان «والدة يافا»، لكن بدا من بعيد أنها أصغر من أن تكون حنان بالرغم من أن لها نفس المشية، وشبهاً في نوعية الثياب على الطراز الحديث والراقي. فحنان كانت تعتني بمظهرها كثيراً وماركات ثيابها عالمية، هذا عدا... عنايتها الفائقة بملابس أبنائها الذين كانوا يأتون معها كل صيف. في الحقيقة كنت أغار دائماً من ملابس يافا الأنيقة، قالت لي مرة قبل وفاة جدتها أن أمها تبتاع لها الملابس من بيروت أو باريس فقد كانوا يسافرون كثيراً.

تضيف بعد أن تشرب رشفة من كوب الشاي الذي أمامها:

- كنت أراقبها من خلف زجاج نافذة المطبخ التي تطل على الشارع الضيق. لقد دخلت يومها إلى بقاله الحاج أبو سليم بعد أن تأكدت أن السائق أدخل حقائبها للمنزل. مكثت في البقاله بعض الوقت ثم خرجت تحمل أكياساً بلاستيكية بيضاء من تلك التي يضع فيها الحاج أبو سليم الحاجيات للمشترين. مشت المسافة التي تفصل المنزل عن البقاله بخطوات بطيئة كأن أبواب السماء لم تكن في ذلك الصباح قد انفتحت لتغرق معطفها وقبعتها.

بعد أيام حين توقفت العاصفة القوية التي ضربت البلاد، ذهبت لزيارتها، طرقت الباب مرات عدة فلم تجبني، أعدت الكرة في الأيام اللاحقة لكن الأمر ذاته كان يتكرر في كل مرة.

حاولت زيارتها كثيراً والحديث معها لكن على ما يبدو لم

تكن تستقبل أحداً. في كل مرة كنت أعود بخفيّ حنين حتى يئست من فكرة لقائها.

قبل وصولها بما يقارب الأسبوعين رأيت بعض العمال في حديقة المنزل، كانوا يعتنون بالحديقة، ويعيدون ترميم الجدار الذي تهدم جزء منه بفعل الأمطار القوية التي سببت الكثير من السيول في بداية الشتاء، حتى أنه لا يكاد يذكر بيت واحد في القرية لم يسلم من أضرارها. ذهبت يومها إليهم لألقي نظرة عن كثب. كان هناك سيدة ثلاثينية تمسح الغبار عن الأثاث القديم، وتكنس الأرضيات المتسخة. ظننت وقتها أنهم عازمون على بيع المنزل، لكن السيدة السمراء التي كانت قد شمرّت عن ساعديها وشدت طرف ثوبها الأزرق إلى خصرها لتتفادى الماء الذي قامت بسكبه على عتبه المنزل، فبدا من تحت الثوب بنطال أسود فضفاض قالت إنها تعمل هي والعمال الآخرين لصالح شركة تعنى بالتنظيف، وترميم البيوت، وأضافت أن صاحب العمل أرسلهم إلى هنا لتجهيز هذا المنزل حيث ستقيمِ سيدة من عائلة مرموقة.

حاولت الاستفسار عن المزيد من التفاصيل التي تخص السيدة القادمة، لكن يبدو أنها لم تكن تعرف إلا ما أخبرتني به.

أنهت الخالة سلمى كلامها عند هذا الحد، وكي أصدقك القول فإن فضولي تجاه يافا زاد أكثر، ففي طريق عودتي من العمل مررت على بقاله الحاج أبو سليم علّي أحصل منه على معلومات جديدة حول يافا، كونه الشخص الوحيد الذي التقى بها وتحدث إليها في صباح حضورها للقرية.

كنت كلما اقتربت خطوة من بقالته دعوت الله أن يتذكر شيئاً من ذلك الصباح الماطر، فقد سمعت بعض الشائعات التي تدّعي أنه مصاب بالزهايمر وأنه «خرّفن» كما يقول أطفال الحي في كل مرة يأخذون فيها من دكانه ما يزيد بكثير على المبلغ الذي قاموا بدفعه.

حين وصلت إليه كان جالساً كعادته على كرسيّ من الخيزران المجدول يدوياً، يقلب أوراق الصحيفة التي لاحظت فيما بعد أنها قديمة بعض الشيء، وإلى جانب الكرسي تستند عكازه البنية. دشداشته الرمادية وقبعته البيضاء المشابهة للقبعات التي يرتديها الحجاج والمعتمرون بعد حلاقة رؤوسهم، ظهره المنحني، نظارته السميكة، وحتى لحيته البيضاء توحي أنه وجد في المكان الخطأ كأنه قادم من زمن آخر لا يشبه زماننا في شيء.

أذكر حديث جدي - رحمه الله - عنه وعن رفقتهما في الحرب وبطولاته التي ظل جدي يحدثنا بها حتى توفي.

- يسعد مساك حاج أبو سليم.

- أهلين يا بنتي.

- كيف صحتك اليوم؟ إن شاء الله بخير

- من الله منيح، بس من عباده لا. الناس خربت يا بنتي. وأنا خلص كبرت وعم استنى الموت يجي ياخدني لعند الحجة أم سليم.

- خير يا حج مين زاعجك؟

- هدول الصغار اللي عم يجوا عالدكان رح يجننوني.

حاولت أن أختصر هذه المقدمات والأحاديث لأحقق الهدف الذي جئت لأجله، فسألته عنها وخاب أملي أول الأمر لأنه أنكر معرفته بها. قال إنه لا يعلم شيئاً وأنه لا يفشي أسرار الآخرين ولا يتدخل في خصوصيات أحد.

- يافا؟! يافا مين؟

يافا راحت يا بنتي، أخدوها اليهود، هالاسم ضاع لما ضاعت البلاد. ضاعت يافا وضاعت البارودة اللي كنا نحارب فيها اليهود.

في تلك اللحظة كدت أصدق أنه «خرّفن» أو ربما لم يخرفن وإنما يجيب بمكر، لم اتعجب ولا ألومه ففي هذه الأيام يخشى الجميع من أي سؤال يطرح حتى لو كان «شو طابخين اليوم». فالمخبرون ينتشرون في كل مكان ويسجلون ما قيل وما لم يُقل، والسجون لا تستثني أحداً لا طفلاً ولا كهلاً...، ولديها دائماً متسع لمساجين جدد. كل كلمة تقال تصل إلى الآخرين وقد صارت قضية كبرى، يبدأ الكل بتحليلها لقياس مدى علاقتها بالوضع السياسي.

من الصعب على الناس الحديث في أي موضوع كان، فآذان الحيطان تصغي، والسجون على استعداد لاستقبال الجميع. السجون واسعة. أوسع من الوطن.

المهم أن الحاج أبا سليم أبدى أخيراً بعض الاطمئنان حين قلت له من أكون، قام بحركته المعتادة التي يقوم بها في كل مرة أذكر له فيها اسمي كاملاً. ينزل نظارته قليلاً لتستقر وسط أنفه، وينظر إلي من فوقها متفحصاً وجهي حتى بتُّ أظن أنه يرى

من دون نظارة أكثر مما يرى بها. أنا أذكره بصديقه رفيق الحرب والبلاد، كما يقول «ابنة الأوادم وحفيدة الغالي».

- أهلين يا بنتي، يرحم ترابه جدك. كنتي قولي من الأول إنك حفيدة الغالي. شو أخبارك وأخبار البلد؟ كنت بقرأ بالجريدة بس شكلي بطلت أشوف أو إنهم صايرين يصغروا الخط اللي بكتبوا فيه الجرايد.

- أنا بخير الحمد لله والبلد على حالها ما تغير فيها شي. وحتى خط الجرايد ما تغير بس نظارتك هي اللي صارت قديمة وبدها تغيير. إذا بدك بنفصلك نظارة جديدة هيك ما بتتغلب وأنت تقرأ الجرايد وبتصير تشوف أحسن.

- مش باقي من العمر شي، شو بدي فيها النظارة الجديدة. بالك هو ضل شي حلو محرز الواحد يشوفه.

قال إنه ما زال يذكر كل تفاصيل ذلك العام، كان عاماً مميزاً بموسم المطر القوي الذي لم يشهد مثله من قبل.

- فاجأتني الست في الدكان لابسة أسود بأسود، قلت يا ساتر «بسم الله الرحمن الرحيم» اطلّعتْ حواليها مثل اللي بدور على إشي. بعدين جمعت أغراض عن الرفوف وحطتهم عالطاولة قدامي.عبيتلها الأغراض بالأكياس وحسيت يومها من صوتها أنها زعلانة مثل اللي بدها تبكي. دفعت وأخذت الأغراض وقبل ما توصل الباب رجعت مرة تانية وقالتلي «يا عمي لو سمحت تبعتلي نفس الأغراض اللي أخدتهم من عندك كل جمعة» وحطت قدامي مبلغ كبير وقالت «بس يخلص المبلغ بدفعلك شو بتطلب، أنا ما

رح أقدر أطلع من البيت لهيك بدي الأغراض يوصلوني عالبيت»
سألتها بس أنت مين يا بنتي قالت إنها يافا حفيدة الحاجة أم أحمد جارتنا -الله يرحمها-.

وما كذبِت خبر من يومها على هالحال، كنت أبعثلها الأغراض كل جمعة أحطهم باب البيت وأرجع بدون ما أشوفها، وآخر كل شهر أو شهرين أحطلها بالكيس ورقة فيها الحساب اللي عليها وهي تدفعلي إياه بمغلف مثل مغلفات الرسائل. ولما تعبت صرت أبعث الصبي اللي بشتغل عندي عشان يوصللها الأغراض.

وهنا انتهى سرد الحاج أبو سليم، ها؟ هل اشتعل فضولك يا صديقي كما فضولي؟ أم أن حكاية يافا حتى الآن لا تعنيك ولا توقظ وحش الفضول الصغير الذي يقبع بداخلك؟

أظن أنني ثرثرت كثيراً هذا المساء، وسيفاجئك طول الرسالة هذه المرة، لكنك أفضل من يستمع لجنون صديقتك!

أما الآن فأنا متعبة جداً وأحتاج قسطاً كبيراً من الراحة. سأكون في انتظار ردك، وسأكتب لك قريباً المزيد من التفاصيل التي سأعرفها في خلال تنقيبي عن هذه الحكاية. حكاية يافا.

(7)

ملاحظة مهمة: نسيت أن أخبرك بها في الرسالة السابقة

لن أكون في المنزل لمدة أسبوع، حيث أنه يفترض أن أسافر غداً إلى الحدود حيث مخيمات اللاجئين الذين أبعدتهم الثورات العربية عن دولتهم ومنازلهم. هذا السفر متعلق بالعمل وسأحدثك بالتفاصيل حين أعود.

(8)

فصل الخريف يتوغـل أكثر، يبدو أن الشـتاء سـيأتي باكراً هذا العام لحسـن الحظ، حظنا نحن الذين يشـكل المطر جزءاً كبيراً من سـعادتهم، الكائنات الترابية التي تنتعش بالمطـر فتهتز قلوبها، وتربو كمـا ذرات التراب، وعلى سـبيل السـعادة أفكر بزيارة يافـا في أول يومٍ ماطر، ففي الشـتاء قد تفتـح بابها لي وقد تحتاج لمن يشـاركها السهر حول المدفأة في مساء ماطر.

المطر يجعلنـا أكثر هشاشـة وحاجة للبـوح، وحباتـه التي تقرع نوافذنا وتُنبِّـتُ الحنين فـي قلوبنا تجعلنـا أكثر حاجـة لرفقة صديق، أو حبيـب يشـاركنا جنـون الرقـص تحـت زخـات المطر، والمسـير لسـاعات من دون تعب. ومـا أجمل أن نكافئ أنفسـنا بكـوب قهوة دافئ في أحـد المقاهـي القديمة التي مـا زالت تعتنـق مذهب فيروز فـي الصباحـات الباكـرة، نراقـب مـن خلـف النافـذة الزجاجيـة كل العابريـن الذيـن يرتـدون المعاطـف الشـتوية، والقبعـات، والآخرين الذين يحتمون من المطـر تحت مظلاتهم التي ما زلت أثق بسـخف وجودها. فلا شـيء أجمل من وقع قطرات المطر على رؤوسنا التي أتعبهـا الصيف، والتي تتعطـش للحظة دافئة كأن يُخبئـكَ أحدهم في معطفه، ويمسك بيديك الباردتين لينفث فيهما شيئاً من دفء أنفاسه.

لأجل هـذا كلـه قـررت أن تكـون زيارتي لهـا مـع أول زيارة للمطر، لاخترق الأسوار المحيطة ببيتها، حياتها وقلبها. ولأجل هذا كله أحـب المطر، فأنا ما زلت أذكـر أول لقاء لَنا في ديسـمبر العام الماضـي في أثنـاء مسـاء ماطر، كنـتُ قَد سـمعتُ عنـك الكثير من الكلام الطيـب من الأصدقـاء والصديقـات، والتقينا فـي مصادفة أو اثنتين من دون أن نتوقف كثيراً عند هذه المصادفات.

لكن هـذه المصادفة كانـت مختلفـة، ففيها كانت دهشـة اللقاء الأول وكما أقول دائماً «دهشة اللقاء الأول أن يترك أحدهم انطباعاً أولياً جذاباً في قلبك، هذا الانطباع الذي يبدل كل شيء فيك لتسير الأمور لصالح المصادفة التـي تبدو للوهلة الأولى عادية، فتكتشـف مع الوقـت أنها ليسـت عابرة تنسـى بعد يـوم أو يوميـن. إنها ذلك النوع الـذي يجعل عينيـك تلمعان، وإحسـاس كبير ينمـو في قلبك المضطرب»

في ذلك المسـاء، معاطف شـتوية، مطر غزير، قفازات وردية، دفء وبـرد، نظرة مـن غريب إلـى غريبـة ومـن غريبة إلـى غريب، كلمات جميلة أهمس بها في أذن أمي عنك، ابتسـامة لم تظهر على وجهي فعوضها قلبي بخفقٍ شـديد، سـأعرف سـرّه بعد ذلك بوقت بعيد.

أنـا أدون الآن هذه الأفكار المجنونة في رسـالة سـأحفظها في المسـودات ولن أرسـلها إليك، وهذه ليسـت الرسـالة الأولـى التي تحفظ هنـاك. الكثير من الرسـائل التـي كتبتهـا إليك قبـل أن نصير صديقتيـن دسسـتها هنـاك، والكثيـر من الرسـائل التـي كتبتهـا إليك

حين كنت صديقتك وخشيت إرسالها خبأتها هناك، وأيضاً الرسائل التي كنت أكتبها إليك في كل مرة أشتاقك فيها، وأحن إليك إلى ذلك الحد الذي لا يمكن احتماله، المرات التي كنت تخذلني فيها قليلاً، والمرات التي كنت تغيب فيها كثيراً، كل ذلك في المسودات محفوظ هناك.

في كل مرة تدخل إلى كهف الصمت وتتركني أصارع الغياب والأفكار وحدي أتعب حد الجنون. أنا أغرق في وحدة قاسية، أتلاشى، حتى أنه يبدو لي أنني لم أعد مرئية أبداً، يعبث القلق بقلبي ويظل بالي شارداً.

أتفقد منذ عودتي من السفر صندوق الرسائل في اليوم الواحد ألف مرة في انتظار رسالة منك، ربما أضاعت الطريق أو تخطفتها عصافير امرأة أخرى.

لا يمكنك أن تتخيل كم كنت متلهفة لسماع رأيك في ما أرسلته إليك من مستجدات اكتشفتها في حكاية يافا. كنت في كل مرة يهزمني التعب في خلال الأسبوع الماضي عندما أتذكرك، وأتذكر أن هناك رسالة منك تنتظر في بريدي سأقرأها إلى جانب فنجان قهوة حين أعود من سفري فيفر قلبي من بين الضلوع، ويحلق كطائر العَنْقَاء التي تنبعث من رمادها. كنت أحب هذا الطائر وأشعر أنها تشبهني، قرأت عنها حتى وقعت في غرامها، فهي طائر خيالي ورد ذكرها في قصص مغامرات السندباد وقصص ألف ليلة وليلة، وكذلك في الأساطير العربية القديمة.

يمتاز هذا الطائر بالجمال والقوة، وفي معظم القصص أنه

عندمـا يموت يحتـرق ويصبح رمادا ويخـرج من الرمـاد طائر عنقاء جديـد. وهكـذا أنا، كنـت كالعنقـاء، فـي كل مـرة أشـعر أن الحياة قتلتني، أسـتعيد قوتي من جديد، وانبعث من رمـادي لأكون أصلب في المواجهة.

(9)

«يا أيها البلد البعيد
هل ضاع حبي في البريد؟»

محمود درويش

لقد مرت أيـام عدة علـى عودتي ولـم أجد هذه الرسـالة التي كنـت أخمـن طيلـة طريـق عودتـي إلـى البيـت في مـا تحمـل بين سـطورها من كلامك العذب، وحديثـك الأنيق، فأنا فـي نظام حياة مختل لا يمكن إنـكاره. فلماذا كل هـذا الغياب يا صديقـي؟ أتراك بخير؟ أم هناك خطب ما أصابك فمنعك من الإجابة!

* * *

غيابك صار في منتصف أسـبوعه الثاني، أمـي لا تجد لصمتي تفسـيراً، وصوت الموسـيقى لـم يصلني من شـرفة يافـا لأن صوت رياح الخريف الغاضبة بدأ يطغى على كل شيء، وكل صوت يمكن أن يصدر فـي هذا الحـي. كل هذا زاد مـن عزلتـي ووحدتي وعزز انغلاق القوقعة عليّ.

هل تذكر حين كنـت أقول لك قبل سـفرك سـيأتي ذلك اليوم

الـذي يصيـر فيـه وجـودي فـي حياتـك حمـلاً ثقيـلاً يربطـك بهذه الأرض، وسـيكون عليـك عاجـلاً أو آجـلاً أن تتحـرر منـه وتخلعه عنك لتمضي خفيفاً مرتاحاً.

كنت أتظاهر باقتناعي بكلامك حين تقول:

- سـتظلين في القلب والذاكرة فأنتِ ممن يطرقون باب العمر مرة واحدة.

لم يكـن جوابـك مقنعاً فكلنـا نتغير تحـت وطأة واقـع جديد، وحيـاة مختلفة عـن كل الـذي عشـناه قبلها، سـوف تكـون مضطراً لمجاملـة أيامك، سـوف تفتـح قلبك لها، وتبتسـم فـي وجهها وفي النهاية سوف تعتادها وقد تحبها لأن لا خيار آخر لديك.

السـيئ في غيابك أنه يسـمح للأفكار الشـريرة بالاقتراب، ففي هذه المـدة التي بتُّ أحسـبها دهـراً ظلت فكـرة ما تنخـر في عقلي مثل نملة نشـيطة، ماذا لـو لم يكن عـذرك هو انشـغالك بعملك أو بأصدقائك كما تدّعي، ماذا لو...

مممم

حتى أنني أخشـى إكمالها لكن حقـاً ماذا لو أن هنـاك صديقة جديدة دخلت حياتك وسرقتك مني؟

وكانـت هـذه الفكرة تأتـي متزامنة مـع عبـارة نزار قبانـي التي تبرق في مخيلتي كشهاب.

«أهمُ الرفاق أتوا إليك

أم أن سيدة لديك».

كنت أعرف بيني وبين قلبـي أنني أضعف مـن أن أواجه فكرة كهـذه، وأن أقبـل واقع غيابك مـن دون اسـتنكار، فقد كنتَ السـند والأخ والصديق الذي يفهمني قبل أن أتحدث، من نبرة صوتي، من النظرة الشاردة في عيني، من ابتسامتي الساخرة وارتباكي.

لماذا الآن وأنا أحوج ما أكون إليك؟

وما يزيـد الطيـن بلة، هـو تواطؤ الأشـياء مـن حولـي معك ، فصـوت السـيدة جوليا بطرس يتسـلل إلـي قادمـا من مذياع سـيارة الأجرة التي أوصلتني البيت عائدة من العمل هذا اليوم:

«تعوّدنا عليك خليك خليـك، تعودنا عليك خليك مدري شـو فيـك، تعودنا ع ضحكاتـك، على صوتـك ع بسـماتك، ع الرقة في همساتك لما نحاكيك».

(10)

وأنت تعود إلى البيت، بيتك، فكر بغيرك

لا تنس شعب الخيام

محمود درويش

لقد كان أسبوعي مرهقاً، صادماً لكل من تبقّى في كيانه ذرة من الإنسانية. أوكل إلي مدير العمل كما أخبرتك سابقاً مهمة الذهاب إلى مخيمات اللاجئين المقامة على الحدود، والتي يقطن فيها آلاف اللاجئين الذين وقعوا ضحية للثورات العربية. كانت مهمتي أن أعدَّ تقريراً مصوراً عن الأوضاع هناك بالدرجة الأولى وتقديم بعض المساعدة باسم الإنسانية.

غادرت صباحاً وسط وابل من دعوات جدتي، ونصائح كثيرة أمطرتني بها أمي. ولغاية اللحظة لا أعلم كيف اقتنعت أمي بفكرة ذهابي، فهي لم تسمح لي ولا لأحد من أشقائي أن يمضي ليلة واحدة خارج البيت، تقول دائماً «أنا مثل الدجاجة لن أدع فراخي خارج البيت».

عدت بعد أسبوع منهكة وحزينة. كنت أمضي النهار كاملاً

في التنقل بين الخيام لأجمع أكبر عدد ممكن من المعلومات عن ظروف خروجهم من بلدهم، وعن حالهم في البلد المضيف، وظروف معيشتهم هنا في المخيم. هذا ما عدا عن نقل الماء اللازم لأعمال الطهو والتنظيف وغيرها، والمساعدة في تجهيز الخيام لاستقبال فصل الشتاء.

ظروف الحياة مأساوية في هذا المخيم الحزين، لن تستطيع كل كلمات العالم وصف الأوضاع الصعبة وحجم المعاناة التي يعيشها اللاجئون في الخيام التي لا تقي حراً ولا برداً. كيف لهذه الخيام الضعيفة أن تقف أمام شتاء تتوقع الأرصاد الجوية له أن يكون الأبرد منذ 100 عام. كيف لها أن تقف في وجه العواصف والسيول وكميات كبيرة من الأمطار؟

كنت أستمع للحكايات التي يرويها اللاجئون بقلب جريح، لا يجد كلمة مواساة واحدة يقابل بها الفجائع التي يسمعها من الكبار والصغار:

- لإيمتى متوقعين تضلوا هون يا حجة؟

- مين عارف؟ يوم.. سنة.. سنتين.. عشرة.. الله العالم.

عدت للقرية كمقاتل مهزوم يتمنى أن يفقد ذاكرته لينسى كل ما رآه. أو أن يستيقظ من واقع يتمنى في كل لحظة أن يكون كابوساً سيئاً لا يلبث طويلاً ثم يستيقظ منه.

هذا الأسبوع السيئ لم يتوقف عند هذا الحد، حتى يوم الجمعة الذي كان من المفترض أن يكون يوم راحتي. استيقظت باكراً لأراقب الصبي الذي سيوصل مستلزمات البيت ليافا، مرت

ساعات الانتظار ببطء، رأيت فيها كل أطفال الحي الذين يلعبون الكرة في الشارع، وكل الرجال الذين ذهبوا لصلاة الجمعة، وكل جارة نظفت أمام باب بيتها، وكل من زارت جارتها حتى ظهر الصبي أخيراً. عمره أقل مما توقعت بكثير، اثنا عشر عاماً تقريباً، حنطي ويبدو أنه ازداد سمرة جراء لعبه في الشمس في خلال الصيف، وجهه دائري وملامحه طفولية، يرتدي كنزة يغطي بقبعتها رأسه الصغير، يمشي ببطء حيناً ويحث الخطى حيناً آخر، حتى وصل إلى البوابة الحديدية البيضاء، فتح البوابة التي لم تكن مغلقة بالكامل فأصدرت صوتاً مزعجاً.

اجتاز الطريق الذي يفصل البوابة الخارجية للحديقة عن بوابة المنزل والتي لا تتعدى السبعة أمتار تقريباً، وضع الأكياس على العتبة، طرق الباب وقبل أن يسمع جوابا غادر مغلقاً خلفه البوابة الحديدية.

ظللت طيلة النهار على الشرفة في انتظار خروجها، كدت أموت من تعبي، شعرت بركبتيّ تنتفضان، فأحضرت على عجل كرسياً من الغرفة لأجلس عليه حتى أتم هذه المهمة الصعبة والمشوقة.

كانت دقات الساعة تسير كعجوز هرمة، وكانت رياح الخريف تزمجر والأوراق الصفراء تنتقل من ركنٍ لآخر في سباق لا أجد له هدفاً ولا معنى، كم يبدو الخريف مذهلاً بتدرج ألوانه على الرغم من أن الأشياء فيه تموت.

بعد ساعات من الانتظار، فُتح الباب أخيراً!

ظهرت كأمنيـة، ترتدي كنـزه رماديـة فضفاضة وبنطالاً أسـود، تربـط شـعرها الـذي يغـزوه الشـيب كذيـل فـرس. يصعـب علـي التفرس في ملامح وجهها بسـبب المسـافة التي تفصـل بينا (عرض الشارع والسـبعة أمتار من بوابة حديقتها الخارجية حتى بوابة البيت الداخلية).

كنت أتأملها من شـرفتي بعينيـن مذهولتين، كمن يشـاهد فيلماً مشـوقاً أو حلماً جميـلاً لا يريد أن يسـتيقظ منه. شـعرت أن الزمن توقـف قليـلاً ليراقب معـي مشـيتها الهادئـة، وكانت ريـاح الخريف تداعب الشـال الذي تضعه على كتفيها كأنها وجدت شـيئاً آخر غير أوراق الشجر الصفراء لتعبث به وتكمل معه رقصتها.

كدت أصرخ!

أناديهـا، ألوح لهـا، أو أفعل أي شـيء يمكـن أن يثيـر انتباهها فتراني، لكنني تراجعـت عما كنت أفكـر به، وتابعـت حركتها وهي تنحني قليلاً لتلتقط الأكيـاس عن الأرض، وتقف من جديد كراقصة باليه.

كنت مندهشـة حد أنه لم يغمض لي جفن تلـك الليلة، ظللت أفكر فيها، وأستعيد من ذاكرتي ملامحها، ومشيتها، كأنني لم أشاهد قط أحداً يخرج من بيتـه! كأن هذا الحدث العادي صـار أمراً مميزاً لا يُنسى.

فكرت كيـف أنه مرت عشـرة أعـوام على سـكنها بالجوار من دون أن ألمحها مـرة، أو أن أفكر فـي أن هناك روحاً أسـيرة خلف الجدران. قد يعزى الأمر إلى أننا لـم نسـتقر في هذا المنزل إلا منذ

عامين، فقد كان منزلنا في المدينة هو المنـزل الرئيس لنا، ولا نأتي إلى هنـا إلا نـادراً، منـزل المدينة أقـرب إلى عمـل أمـي وجامعاتنا ومـدارس أخوتي الصغـار، انتقلنـا إلى هنا بشـكل دائم قبـل عامين حين نُقلـت أمي مـن المدرسـة التـي كانت تعمـل بها إلى مدرسـة القرية التي افتُتحت حديثاً، وفي خـلال العام الأول من انتقالنا كنتُ منشـغلة في عامي الدراسـي الأخير في الجامعة، وأمكث في الغرفة البعيدة التـي لا تطل على بيت يافـا، وانتقالي مع بدايـة العام الثاني إلى هذه الغرفة التي كانت مغلقة، تخزن فيها أمي الملابس الشـتوية والأغطية والأثاث غير المستعمل هو ما أثار انتباهي لكل ما يحدث في البيت المجـاور -بيت يافا-، هذا ما عدا صوت الموسـيقى التي صارت مسموعة والتي تتوافق مع ذوقي الموسيقي غالباً.

الموسـيقى تحدثنا من دون أن ترهق نفسـها بابتكار الكلمات. الموسـيقى تربت على أحزاننا بكفٍ من غيم ومطر، وتمسك بأيدينا لتأخذنا إلى عالـم النسـيان أو التذّكر، ومدن لا نعرفها ولكنها تعرفنا وتعـرف كيـف تكافـئ الغربـاء برفقـة طيبـة، وكـوب قهوة سـاخن. الموسيقى التي تحمـل الأوجاع بعيـداً لتمنحنـا حالة مـن اللاوعي المؤقت وراحة من تعب الحياة.

آآه كدت أنسى

كدت أنسـى من فـرط انهماكـي بيافا والموسـيقى التـي تأتيني من منزلها حكاية غيابك وليتني نسـيت حقاً. وحتى يأتي ذلك اليوم الذي يحمل رسـالتك أو نسيانك سـأكتب كثيراً لأنسـى هذا الغياب الذي دخل بيننا من دون استئذان.

(11)

ملاكي الضائع في مدن الضباب والغياب، المدن الغارقة تحت المطر الذي لا يشبه مطر بلادنا وشاعريته في شيء. مدن تعرف جيداً كيف تسرق أحبة لنا كانوا أقرب إلى أنفسنا منا لتأخذهم في حضنها البارد بعد أن اعتادوا على دفئنا، ثم تمسح شيئاً فشيئاً ذاكرتهم التي اجتهدنا باستماتة لنعلق بها ونجد بين رفوفها متسعاً لمصادفة جميلة، أو نزهة قصيرة نسير فيها إلى حتفنا معهم.

من قال أن الشتاء واحد في كل مكان على هذه الأرض؟!

لكل مدينة يا صديقي مطرها الخاص الذي يميزها عمّن سواها، لكل مدينة شوارعها، صباحاتها، ياسمينها، رائحتها وعشاقها المبللين بعطر السماء. لكل مدينة طقوسها الخاصة باستقبال الضيوف، وتوديع المسافرين، وضرب الأعداء.

لكل مدينة مساجدها وكنائسها، صلواتها ودعواتها، فكيف تعيش في مدينة لا تشبهك؟ ولا تجد في طرقاتها وجه أمك ورائحة كفيها المخضبين بالحناء؟

أنا لا أنساك ولا أتجاوز غيابك!

عالقة في منتصف هذه الدوامة، في متاهة كبيرة لا مخرج لها

ينقذني من هذه المشاعر المتضاربة بين كرهك، انتظارك، نسيانك، القلق عليك، والخوف الذي يمسك قلبي كدمية يفككها إلى أشلاء ثم يبعثرها كطفل عابث.

تقهرني فكرة أن ألتمس لك آلاف الأعذار التي لا تخطر على بال بشر، لا يمكن أن تضحك بها على مجنون، فكيف ستُقنع عاقلاً. الذنب دائماً ذنب الظروف، المرض، المواصلات، الأصدقاء، العمل، لم أحملك ذنب الغياب يوماً.

أقتل غيابك بقراءة رسائلك المرتبة في بريدي وفقاً لتواريخ وساعات وصولها، محادثاتنا الطويلة في الفيسبوك، أحفظها عن ظهر قلب، أردد ما كتب فيها، أعيدها مراراً كمن يراجع درساً مهماً، أو مادة دراسية لامتحان مصيري.

إلى أين يقودني كلامك الذي أفهمه ولا أفهمه، ربما لأنني احتجت لكلمة صريحة تفك هذا الغموض الحالك الذي يقف بيننا كجدار لن يزول طالما لم يجد من يثور عليه.

هشة أكثر من أي وقت مضى

أنساك لأذكرك

وأذكرك لأنساك.

أتناول الطعام بشراهة لم أعهدها في نفسي، أُنهك جسدي في العمل لساعات طويلة ومتواصلة، أمارس أنواع الرياضة الشاقة، وكل ما يمكن أن يرهقني فيمنحني بطريقة ما تعباً يدفعني للنوم فور وصولي إلى المنزل من دون أن أجد في نفسي حاجة لتفقد

الرسائل الواردة التي لن أجد رسالتك بينها.

من دون أن انتظر!

ويا ليت ما أفعله يجدي نفعاً مع مجنونة تحتاج رسالة منك لتتنفس ملأ رئتيها وتشعر أنها بخير.

كل هذا لا يغير شيئاً من حقيقة أنني وفور دخولي لغرفة نومي -هذا الركن الصغير الذي صار كهفي الصغير وضم بين جدرانه بعض الأوراق الممتلئة بالخواطر والأشعار ودفاتر مذكراتي التي تتحدث عنك في أغلب صفحاتها- أبحث عن جهاز اللاب توب الخاص بي وأقوم بتشغيله وأنا ما زلت أحمل على كتفي الحقيبة وأرتدي ملابس العمل. أبحث بين الرسائل عن رسالة منك تأخرت لكنها عرفت أخيراً كيف تصل، ولم تصل!

لم أجد إلا الفراغ الذي يأكل من صحتي وعافيتي كوحش جائع كلما طال غيابك!

أحاول دس رسالة جديدة اطمئن بها عليك قليلا، وأُسكِتُ بها أنين قلبي فيقف الكبرياء لي بالمرصاد رادعاً لحظة الضعف تلك، مؤنباً اندفاعي نحوك، واهتمامي الذي لا يستحقه رجل تجاهل رسالة بعثت بها إليه. كنت وصلت إلى مرحلة من اليأس، فقد غبت قبل سفرك كثيراً، وكنت أخترع لك ألف عذر وحين تعود يتبين لي أنك لم تغب لعذر محدد بل لأجل الغياب فقط لا غير.

* * *

قررت أن أشغل نفسي بإعداد البحث الذي سافرت خصيصاً لأجله. كنت كلما كتبت حرفاً تذكرت الدموع المحتبسة في العيون

البريئة، واجهة الحياة التي ما عادت ترى إلا الموت، ولا تسمع إلا صوت القنابل. أتذكر سعيهم الدؤوب للتعايش مع وضعهم في المخيم، بكاء الأطفال لقلة الطعام والدواء، انكسار الشيوخ الذين يجلسون على أبواب الخيام واضعين الكف على الخد، ومحدقين في الفراغ في منظر يتقطع لأجله القلب. تذكرت حال شعبنا في تهجير 1948 وتهجير 1967، الروايات التي غطت تلك الفترة والأفلام والمسلسلات التلفزيونية كانت كافية لتمنحني تصوراً عما حدث هناك في الوطن المسلوب.

حتى ألعاب الأطفال هناك تندرج ضمن لائحة الحروب والموت والأدوات الحادة، من قتل البراءة؟ من حول الأطفال الذين يركضون في الحدائق ويلعبون الغميضة وكرة القدم إلى أطفالٍ يجسدون حرباً مصغرة؟

من بين الأطفال كانت هذه الفتاة تجلس على تل صغير من الرمال، اقتربت منها لأقاسمها الحزن، كانت تصف لي حالها وهي تصرخ تحت أنقاض منزلها الذي وقع فوق رؤوسهم بجانب جثة أمها وأخوها الصغير لساعات في انتظار معجزة سماوية أو منقذ ينتشلها من هذا الجحيم.

- خرج أبي في الصباح الباكر قبل الحادثة بيومين بحثاً عن شيء نسد به جوعنا بعد أن نفد الطعام من المنزل. انتظرناه طويلاً لكنه لم يعد. كنت أرى نظرة الرعب في عيني أمي التي ظلت تلوك الصمت طيلة يومي غيابه. شعرت بها تشيخ سريعاً حتى بدت أكبر من عمرها بعشرة أعوام فعرفت يومها ما يفعل الخوف بالإنسان.

كانت تجلس في زاوية الغرفة محتضنة بين ذراعيها جسد أخي الصغير، وكنت أجلس إلى جانبها قليلاً ثم أغادر إلى الزاوية المقابلة خوفاً من صوت أنفاسها ودقات قلبها المرتعشة.

بقينا على هذه الحال حتى بدأ صوت القصف يدّوي فوق رؤوسنا وكانت السماء تمطر رعباً. غادرت مكاني أتحسس طريقي في الظلام بعد أن انقطعت الكهرباء، اقتربت منها وقبل أن أصل حضنها وقعت الكارثة وانهار البيت فوق رؤوسنا.

البيت الدافئ الذي كان يضم على صغره أكبر أحلامنا وطموحاتنا، ملابسنا الأنيقة التي كانت تختارها أمي بعناية، أدواتنا المدرسية، الألوان، كراسة الرسم، ألعابنا المحشوة بالقطن والغيم والحب. البيت الذي كان يستيقظ صباحاً على صوت أمي وخرير الماء الذي ينسكب في المغسلة حين يحلق أبي لحيته، على رائحة القهوة المنبعثة من المطبخ المتواضع وطاولة السفرة بمقاعدها الخشبية. كل شيء تحول إلى ركام، لا أقصد البيت والأثاث فقط بل الأحلام والأمنيات. قتلوا حتى قدرتنا على الحلم، والأغنام التي نعدها قبل النوم لنغفو. قتلت الحرب فينا كل شيء.

لا أدري كم من الوقت بقيتُ تحت الركام، كيف خرجت وكيف وصلت إلى هنا. لا أذكر سوى وجه أمي الملطخ بالدماء.

يا الله، كيف أشرح قسوة كهذه، كيف أترجم النظرة في عينيها وهي تروي لي هذه التفاصيل وتقول بحزن «احكي للعالم، خليهم يعرفوا». كيف تحول الحرب أطفالاً صغاراً إلى فلاسفة يقولون كلاماً أكبر منهم بكثير.

كيف أصف للعالم وجهاً بريئاً بعينين خضراوين ينطفئ فيهما نور الحياة وليس هناك من يشعله.

كيف أبرر عجزي، عجزنا جميعاً

عجز هذا العالم!

تذكرت أحمد قعبور وهو يغني:

«بدي غني للناس اللي ما عندن ناس

وكانوا هني الأساس لكن كيف بغني كيف».

ولن أنسى قصيدة سامية الجلابي وهي تصف حالنا المؤسف:

معذرةً...

لِـ وطنٍ حزين نازِف..

لِأبنائه الذِين لا يملكونَ سوى الدِماء يُقدمونها له ولا يرتوي..

للأمهاتِ الثُكالى..

والآباءِ الموجوعين..

للأطفالِ المُشردين..

للأراملِ..

لليتامى..

المحزونينَ..

المنكوبين..

صبراً..

للتعابى مثلِي.. ممن لا يملكونَ سوى أقلامٍ مكسورة

(12)

«جبار هو ذاك الذي يكونُ شعاره في الحياة: سأتألم ولكنني لن أغلب».

مي زيادة

ليتني كنت هكـذا، ليتني اسـتطعت إخمـاد صوت قلبـي الذي يصرخ في مدينة مهجورة، لا بشـر، لا أضواء، لا مطر، لا موسيقى، لا شيء سوى ليل طويل.

أعرف أن صباحاً جديداً قد بدأ وأن عليّ أن أخلع ثوب الليل المظلم الذي يلتصق بجسدي لأمارس صباحاً مميتاً آخر.

لون الحزن أزرق!

هـذا مـا اكتشـفته فـي الصبـاح حيـن نظـرت إلـى وجهـي في المرآة، هذا ما أراه حين أتخيل وجه يافا، وهذا ما يرتسـم في وجه أمي حين يمـرض أحدنا، وفي وجـه صديقتي حين سـرق الاحتلال خطيبها وغيَّبه في الغربة الحديدية. هذا اللـون ذاته الذي ينبعث من شاشة التلفاز، من ساحات الحرب، من الموت.

لون الحزن أزرق!

ليس لطيفاً كلـون السـماء أو البحر، بل قاتم، قاتـم جداً كلون الكدمات التي يحتقن فيها الدم تحت طبقة الجلد بعد ضربٍ مبرح.

* * *

بعد سـفر طويل في وجوه العابرين في الطرقات، نصف ساعة ما بين البيـت والعمل، لكنهـا كافية لرحلـة طويلة في وجـوه الذين نلتقيهـم فـي الحي، فـي الحافلـة، فـي الشـوارع الكبيـرة والطرقات الضيقة، في المصاعد، على الأدراج وعند إشارات المرور.

وجـوه حزينة، متعبـة، بـاردة، سـاخرة، ضاحكة، بريئـة، خبيثة، متألمة، متأملة، باكية، متشائمة، متفائلة، لا مبالية، زرقاء!

الكثير من الوجوه!

الكثير من الأقنعة!

الكثير من الابتسـامات المزيفة، والضحكات السـاخرة، وحدها ضحكات الأطفال على أبواب المدارس حقيقية كالربيع.

هـا قـد وصلـت إلـى المكتـب لتسـتقبلني صديقتـي بوجههـا العابـس، تلقي الصحيفـة التي أكتـب بها زاويـة يومية علـيّ فترتطم بصدري وتسـقط أرضـاً، أستشـف غضبها مـن يديها حيـن تكتفهما على صدرها، وقدمها التي تهتز بحركة لا إرادية.

- أين زاويتك اليومية؟ ها؟ أين هي؟

مجنونة، أقسم إنك مجنونة

لمـاذا تهدميـن في أيـام تعـب سـنوات؟ كل ما سـعيت لأجل بنائه، سـنوات من التعب والجهد، السـهر، البكاء، الانتظـار، القلق، الترقب، وكل الأشياء التي جعلتك تحترفين الكتابة.

لماذا تضربين بها عرض الحائط.

لماذا تحرقين محصولك بيديك بعد أن تعبت في فلاحته؟

قولي بربك هل يستحق رجل في العالم أن تفسدي حياتك لأجله!

أيستحق رجل كل هذا!!

أيستحق شيء ما في هذا العالم أن تفسدي أعواماً من التعب. انظري إلى نفسك، هل شاهدت وجهك في المرآة؟ هل شاهدت هذا الشحوب والهالات السوداء أسفل عينيك؟

أفيقي.. أفيقي قبل فوات الأوان.

لقد أرسلت لك الصحيفة صندوقاً من الرسائل المطبوعة، وصلت لأجلك على بريد الصحيفة الإلكتروني، وصفحتهم على الفيسبوك، ليسألوا عن سبب انقطاع قصائدك، ومقالاتك، واختفاء صفحتك على الفيسبوك.

الكتابة ليست لك وحدك، هذا شيء عليك أن تعيه جيداً قبل أن تتخذي خطوة حمقاء كهذه. أنت تكتبين للجميع. لا تكوني أنانية إلى هذا الحد!

تصمت قليلاً، تختفي نظرة الغضب من عينيها، وتحل مكانها نظرة عتب، تدير ظهرها وتمضي.

أنا أفهم غضبها، هي لا تستسيغ فكرة أن نكون أنا وأنت أصدقاء، فهي تدرك تماماً كم أحبك، وأن هذه الصداقة خدعة نخفي بها ما في قلوبنا. الحب يجب أن يكون معلناً وواضحاً. لا استعارات في الحب.

هـذه العلاقـة المبهمـة المتأرجحـة مـا بيـن الصداقـة والحـب ترهقني. هل أنا حقاً مجرد صديقة لا تختلف عـن أي أنثى قابلتها، أم أن لي في قلبك مكاناً يليق بحبيبة؟

في مـا مضـى، قبل سـفرك كنـت أخـوض حربـاً أخـرى، منذ عرفتك وأنـا أخوض الحروب مع نفسـي وأهزم، دائمـاً أُهزم. كنتَ تغيب فأموت أنا.

أذكر مـرة غبـت فيهـا لأيـام مـن دون أن أسـمع منـكَ خبراً، حاولت الاطمئنـان عليك فلم أجـد رداً على رسـالتي. التقينا بعدها مصادفة، فرحبت بي بعفوية وابتسامة لمست قلبي.

«أحببت ترحيبه» قالت إحدى صديقاتي.

كان اللقاء أنيقاً بما يكفي ليستحق ما بذلته من انتظار، من قلق على تأخر ردك على الرسـالة العالقة في بريدك، الرسالة التي بقيت في بريدك البارد وحيدة تنتظر أن تقرأها بعينيك الدافئتين وقلبك.

تأكدت صديقتـي من مشـاعرك نحوي قبـل أن أتأكد أنـا، لقد علمتنـي الحيـاة في مـا مضى مـن عمر غـارق فـي الخيبـات أن لا أثق إلا بالكلمـة الواضحة والاعتـراف الصريح. لـن أورط قلبي في فوضى الاحتمالات - هذا إن لم يكن قد تورط منذ زمن -.

الاعتـراف الصريح ولاشـيء آخر، هذا مـا أريد وانتظـره، ولن أقبل بأقل منه أبداً.

«الذي يرحب بك بهذه اللهفة والابتسامة المفعمة بالحياة ليس مهتماً فحسب.. بل يحبك، حتى لو لم يقلها بكلمة مباشرة فإن كل شيء فيه يقولها».

يومها كانت الكلمة صاخبة تسمع ضجيجها من آلاف الكيلومترات كأن فيها من صوت الرعد، كأنها الكنز الكبير الذي ذرفت من عمري ثلاثة وعشرين عاماً في انتظاره.

يومها كان صوت فيروز يزيد الأمر سوءاً «يا خسارة ما كتبنا» بقيت هذه العبارة تقرع الطبول في رأسي، وظللتُ في حيرة من أمري أنبش ذاكرتي بحثاً عن عذر لغيابك.

«كانت نظرته تصعد درجات السلم على وقع خطواتك، الابتسامة لم تفارق وجهه، أبطأ من مشيته ليرحب بك. كنت وراءه ورأيت كل شيء. أنا واثقة مما أقول لقد كان سعيداً جداً».

قلت لها ذلك اليوم:

«بقي أقل من شهر، تعرفين ما معنى هذا، تعرفين جيداً وأنا كذلك أعرف. سوف يذهب بعيداً، لن نلتقي، لن نتحدث كثيراً، سأصير مهملة كشجرة طريق وسيصير بعيداً كقمر».

كان أسبوعاً صعباً، لم أركَ فيه كثيراً.

- النظرات الصغيرة تكفي.

- لا تكفي، صدقيني لا تكفي، أريد أن أراه أكثر، أن احتفظ به لمدة أطول.

- سوف تشتاقين له بالمقدار ذاته إن رأيته كثيراً أو قليلاً.

-..........

- أو ربما سيزداد شوقكِ إليه إذا قال لك شيئاً جميلاً، عندها ستُجنّين إن لم تريه في اليوم التالي.

كنت أتمنى أن أشاركك المقعد ذاته في حديقة عامة، أن

أسير معك في طريق طويل، وأخوض معك نقاشات لا تنتهي عن الموسيقى والكتب والشعراء الذين نحب. يا الله كم يبدو هذا الشعور مؤلماً، أن تتمنى أشياء بسيطة وتشعر أن الآخر يريد أن يشاركك التفاصيل الجميلة ذاتها، لكنه لا يفعل، وتنتهي الحكاية بـ«يا ليت» لأننا لا ننفذ ما يخطر في بالنا بعفوية من دون أن نفكر في الآخرين. نحسب ألف حساب للأشياء الأخرى، تلك التي تقف في طريق الحب.

كان الفرق بيني وبين الأخريات يجعلني مجنونة، نعم مجنونة لأفعل أي شيء لأجل رجلٍ أحبه. الفرق بيني وبين غيري أنني لا أريد أن أخفي شيئاً عن عائلتي والعالم. أريد أن أحبك بجنون، وأقول لكل الناس أنك حبيبي. أريد حباً دائماً لا ينتهي. كنت تقول لي: الحب ليس عيباً، العيب أن تكمل حياتك مع شخص لا تحبه. وأنا أحبك وأريد أن أظل معك للأبد.

في ذلك الوقت لم يكن الكبرياء هو العائق، كنا قد تجاوزنا هذه الحواجز ونملك الوعي الكافي ولا ينقصنا في تلك المرحلة المجنونة من العمر إلا الاعتراف الصريح بالحب.

كنت ولا زلت امرأة عجولة، لا طاقة لي على الصبر، كنت وما زلت. كان الزمن يتوقف بي حين نلتقي. لا أعود أرى الأشياء حولي وكنت حين ينتهي الحديث، ويذهب كل... منا في طريقه، أشعر أن هالة من الحب تحيط بي وأن كل البشر من حولي ينظرون إليّ، كأنهم يرون ما في قلبي. أحاول أن أتذكر نبرة صوتك، شكل وجهك، أو أي شيء آخر، فتخذلني ذاكرتي كأنني

حين أكون معك أصير كائناً أثيرياً يتلاشى سريعاً. أيضاً لا أتذكر أية كلمة من الكلام الذي قلته لـك، ومن المؤكد أنني أتفوه بالكثير من الحماقات التي تضحك عليها في ما بعد.

تمنيـت مـراراً أن أقول لـك لا تذهـب بعيـداً، لا تذهـب إلى مـكانٍ بعيد حيـث لا تتذكرنـي، لا تبتعـد حيث لا أراك ولا أسـمع صوتك، فعيناي دائماً تبحثان عنك.

لم أقل لك كل هذا.. لكنك تعرف، أليس كذلك؟

* * *

في تلك الفتـرة كنت أظن أن ذاك كان أسـوأ غيـاب لك، وها أنا أخطئ مرة أخرى في تقدير الأحداث فغيابك هذه المرة أسوأ.

لن يفهم أحد ما أشـعر به هـذه الأيام، فهـم لا يعملون حجم الحيز الذي تشـغله فـي قلبـي وقصائدي. كنـت أكتب لـك قبل أن التقيـك، وظللـت أكتب لـك حيـن عرفتك ولـم تكن بعـد تعرفني. بعدها كتبت إليـك وأنت فـي عمق قلبـي فكيف أكتـب الآن وأنت غارق في الغياب؟

أنـا الآن متعبـة كغيمـة توشـك أن تمطـر لترتـاح مـن حملهـا الثقيل، وعلى الرغـم من توقفي عن الكتابـة بالكلمات في الصحف والمواقع الإلكترونية وصفحات الفيسـبوك ما زلت أشعر أنني أكتب بطريقة مختلفة، بالأفكار المكدسة في رأسي بالموسيقى التي استمع إليها، بصمتي، بكل حواسي.

أكتب بطريقة لا يفهمها غيرك!

على الرغم مـن حبي الشـديد للكتابـة فإني أحبـك أكثر وهذا

ما لم أخبرك به من قبل - نعم أحبك - وأستطيع احتمال خسارة الكتابة حتى لا أخسرك!

الحياة فخ والكتابة هي الطُعم الذي يوقع بنا.

فهي تستمع لنا بإصغاء، تدقق في الكلمات التي نكتبها، في الأغنيات التي نسمع، في العبارات التي نقولها لحظة حب، في الوعود التي نطلقها كفراشات من حين لآخر، وإلا لماذا أشعر أنني أعيش الآن تفاصيل رواية كتبتها في ما مضى، أنا البطلة فيها وأنت الفارس النبيل؟

كيف يتحول الخيال الروائي إلى واقع نعيشه!

ليست نبوءة!

أن أعيش تفاصيل حب وفراق كتبت عنهما في رواية يتداولها القراء ويصفقون لها حين يجدون فيها شيئاً يشبههم. ها أنا أعيش الآن تفاصيل رواية كتبتها ونشرتها العام الفائت، بأدق تفاصيلها، سطراً سطراً.

ليست نبوءة!

هذا اختبار الحياة، فهي تضعنا وجهاً لوجه أمام وعودنا، نجدها جالسة تحت طاولات العشاق، في المسافة الضيقة بين أحاديث الأصدقاء، في ظل شجرة يستظل بظلها زوجين سعيدين.

لتختبرنا في كلامنا ووعودنا تضعنا في غربالها الضخم، لتميز الخبيث من الطيب، تجعلنا قسمين أحدهما يولي ظهره هارباً والآخر يختار المواجهة لينفذ كل كلمة قالها فيثبت جدارته واستحقاقه.

هذا اختبار

وإلا لماذا أجد إحدى الصديقات تبكي طيلة الليل لأنها تريد طفلاً تكبر به ويكبر بها حتى لو اضطرها ذلك للتخلي عن زوجها والزواج بآخر هي التي قالت قبل سنوات:

«سأبقى برفقة رجل أحبه بالرغم من كل شيء، حتى لو ظهر بعد الزواج أنه عقيم، أنا أحبه لأجله لا لأجل الأطفال أو أي شيء آخر».

* * *

التفت إلى المكتب لأجد الصندوق الكرتوني الذي تحدثت عنه صديقتي، كان صندوقاً متوسط الحجم مختوماً بشعار الصحيفة. اقتربت منه بوجل من ارتكب ذنباً ويستعد لمواجهة صعبة مع من أخطأ بحقهم، كنت أتخيل وأنا أشرع بفتح الصندوق أنني لن أجد أوراقاً كما ادعت صديقتي، بل أصوات بشرية ستهّب من قعر الصندوق لتصرخ بي وتفترسني، وقد تشتمني إن كانت غاضبة.

لكن ولحسن الحظ لم تهاجمني الأصوات التي تخيلتها، بل وجدت الكثير من الأوراق المطوية بطريقة متشابهة، على ما يبدو قاموا بطباعة الرسائل على الورق لتصير روحاً وجسداً بعد أن كانت مجرد حروف مرصوفة على جسد التكنولوجيا الميت.

أرجأت لهفتي لقراءة هذه الرسائل إلى حين عودتي إلى المنزل، لأنني أردت أن أقرأها بهدوء أولاً، ولأن وقت العمل خاص بالعمل وليس بأمور أخرى كقراءة رسائل شخصية.

كان النهار طويلاً، مرهقاً كالمعتاد. اختتمته بوضع الرسالة

التي كتبتها لـ يافا في صندوق البريد القديم المجاور لبوابة بيتها الحديدية الصدئة، أملاً في إيجاد رد منها أو إذن بالزيارة لأتعرف إليها عن كثب.

دخلت بعدها إلى المنزل لأبدأ بعد وقت الراحة قراءة الرسائل العذبة من أشخاص لا أعرف غالبيتهم، ولم يسبق لي أن تحدثت إليهم من قبل. شخصيات جميلة كانت تقرأني بصمت، وحين انقطعت عنهم كان عليهم هتك ستار الصمت هذا وتأنيبي على فعلتي الشنيعة - على حد تعبيرهم -.

كانت حروفهم من نور، يصفون أثر ما أكتبه على قلوبهم وحياتهم. في الوقت الذي كنت أظن فيه أنني أكتب لأجلي، وأن توقفي عن الكتابة أمر منوط بي وحدي ولن يضر العالم بشيء، فهذا العالم مليء بالشعراء والروائيين الذي يشكلون سقف كفاية لكوكب الأرض وكواكب مجاورة أيضاً.

عذبني ذلك الشعور بأنني خذلت من وثقوا بقلمي وأحبوه، وأن قصائدي ليست ملكاً لي وحدي، بل لكل من قرأها فنالت استحسانه. لكل امرأة وجدت نفسها في حرف حزين ربت على كتفها. لكل امرأة أحبت قصيدة حب فبعثت بها إلى حبيب، صديق أو زوج. لكل من وجد في ما كتبت أملاً بقادم أجمل فبدأ صباحه بابتسامة، ولكل من نام حزيناً فوجد في جرفي صديقاً يشاركه حزنه.

من بين الرسائل التي وصلتني كانت رسالة الغالية سامية جلابي، صديقتي التي ملكت قلبي على الرغم من أنه لم يجمعني

بهـا إلا نافـذة إلكترونيـة ورسـائل مـن القلـب للقلـب. وجـاء فـي رسالتها:

«أنت ليه بتفكري بأنانية كده؟

أنت مش كده ولا هتعملي كده

أنا مخنوقة من اللي عملتيه، فاهمة يعني إيه!

مهمـا كان اللي أنـت فيـه، اللي عملتيـه مش من حقـك. أنت قتلتي حاجة فيا!

قصائدك كانت نافذة بتطلي بيها للعالم

عارفة إن كتيرين جداً كانوا بيقرأولك؟

أنا كنت في يوم في ندوة أدبية، في بنت قالت إنها بتقرأ لناس كتير وذكرت اسمك في أول الائحة.

كنت بفتخر بيكي وقمت بسرعة قلت لهم «دي صاحبتي»

كنت بقولها بحماس شديد

المهـم إنـي بفتخـر بيكي مهمـا حصـل، بـس اللـي عملتيه ده صعب يتنسى، لازم ترجعي تكتبي.

أنا بحبك وربنا ما يحرمني منك ولا من حرفك

كل حاجة بتعدي والأيام هتبقى أحلى.

أنا عارفة إن ده من الحب وعمايله

خلي بالك منـك، أنا جنبـك، إوعـي تتصرفي تصـرف مجنون تاني مرة

أختك سامية»

لم استطع حبس الغيمة التي باغتتني تلك اللحظة فأمطرت دموعاً، ولم استطع إسكات نشيج قلبي. جعلتني الرسالة هذه وغيرها أعيد التفكير في قرار التوقف عن الكتابة، وتلقائياً وجدت نفسي أبحث عن ورقة وقلم لأكتب من جديد.

نعم سأكتب.

(13)

هل تعلم كم مرة مات قلبي في غيابك!

هل تدرك كم بكيت؟

كم مرة أدارت لي الحياة ظهرها؟

كيف ماتت ابتساماتي وضحكاتي؟

المزاج الجميل والنظرة المتفائلة تمنحنا واقعاً أجمل. هذا ما قرأته في كتاب السر لرواندا بايرن، وهذا ما يحاول خبراء التنمية البشرية إقناعنا به. لقد كتبوا ملايين الكتب في هذا المجال. حسب قانون الجذب فإن أفكارك السلبية تجذب المزيد من الأمور السلبية لحياتك كأنها مغناطيس ضخم، وأفكارك الإيجابية تفعل الأمر ذاته، ولذلك إذا أردت واقعاً جميلاً عليك أن تفكر بفكرة جميلة وهكذا تبدأ بشيء صغير يكبر أكثر فأكثر. لم أكن أثق بهذا الكلام بقدر ما وثقت بحديث قدسي رواه البخاري ومسلم «أنا عند ظن عبدي بي» كان فيه من الدفء ما يكفي لأبدأ الصباح بابتسامة، لا أدري من أين استعرتها. أن تشعر أن الله بقربك ووحده لن يخذلك ولن يتخلى عنك ولن يحقر من قيمتك حين تشكو له وتفرد أمامه ما في قلبك. كل هذا يجعلك تشعر بالأمان والثقة بأن القوي، الأقوى

من كل شيء سيسندك ويكون إلى جانبك.

وقفت أمام المرآة أحدث نفسي قليلاً وأمنح ذاتي بعض الأمل قلت لها:

«صباح الخير يا أنا»

عليك أن تتذكري أنك لا تحتاجين رجلاً ليكون صباحك مشرقاً. كوني أنت جمال الصباح وأناقته. الصباح يشرق من عينيك البراقتين. أنت مشرقة بذاتك كالشمس فلا تكوني قمراً ولا نجماً يحتاج غيره ليضيء».

ثم قلت بصوت لا يخلو من العلو:

«صباح الخير لكل نساء العالم. لمن تنتظر رجلاً أحمق. لمن بللت وسادتها بالدموع الليلة الماضية. لكل من انتظرت صباح الخير من أحدهم. صباح الخير يا جميلات. صباح الخير لكل بيضاء، حنطيه وسمراء. لكل طفلة وصبية وعجوز. لكل موظفة وطالبة وأميّة. لكل نقية وساحرة وعجوز شمطاء. لكل أم وأخت وابنة. لكل عزباء ومتزوجة. لكل أرملة ومطلقة. صباح الخير يا جميلات».

كنت بخير أو هكذا بدوت. لكن كان في القلب شيء آخر يشتاق إليك وينتظرك. حنين يسحق تحت مطرقته الضخمة كل الكبرياء المزعوم.

لم يكن يومي في العمل مميزاً، مراسلون صحفيون، مقدمو برامج، تقارير إخبارية، كاميرات، أحاديث، مقابلات، أخبار عاجلة، تصوير، خبراء تجميل يُعّدون مقدمي البرامج للظهور على الشاشة،

أجهزة حاسوب، على الهواء مباشرة، أوراق أوراق أوراق في كل مكان. لا شيء مميز إلا ذلك الاتصال الهاتفي الذي جاء بصوت موظفة البريد.

قالت أن عليّ استلام طرد بريدي من مكتب البريد في وسط المدينة قبل انتهاء وقت الدوام الرسمي، اليوم الخميس وإن لم استلمه اليوم سيظل هناك ليوم الأحد، لكن مرسل الطرد أوصى بأن استلمه اليوم تحديداً.

لم أكن انتظر طرداً من أحد، ولم أعتقد أن يكون أكثر من رسالة تتعلق بتوقفي عن الكتابة أو شيئاً ما يخص العمل.

تابعت عملي من حيث توقفت حين ورد الاتصال من الموظفة من دون أن أفكر في الطرد الذي لم يثر اهتمامي، ولم أذكره إلا الساعة الواحدة ظهراً وكان قد تبقى ساعة واحدة قبل انتهاء الدوام الرسمي في البريد. استأذنت من المدير وتوجهت فوراً لمكتب البريد وسط زحمة الظهيرة الناجمة عن خروج طلبة المدارس والجامعات وبعض الموظفين وهذا الوقت من الساعة الثانية عشرة إلى الثانية بعد الظهر يعد وقت الذروة في الأيام العادية فكيف إذن بالخميس وهو نهاية الأسبوع؟

من حسن الحظ وصلت قبل خروج موظفي البريد واستلمت الطرد الخاص بي بعد سلسلة من الإجراءات المعتادة في الدوائر الحكومية من تواقيع وغيره. وللمفاجأة كان الطرد منك وهذا الأمر لم يكن متوقعاً وما لم يخطر في البال أبداً.

نعم منك فهذا اسمك وهذا عنوان سكنك!

لكن ماذا ترسل لي بالبريد؟ هل الأمر متعلق بغيابك؟ بالرغم من أنني لم أكن أعرف محتويات الصندوق إلا أن شعوراً عارماً بالسعادة انتابني فاجتث كل الغضب والحزن الناجمين عن غيابك وتجاهلك.

احتضنت الصندوق ثم شكرت الموظفة وخرجت وأنا أوزع الابتسامات كالمهابيل على كل من حولي، كنت مزهوة وأشعر أنني أحمل كنزاً. اقترح عليّ أحد رجال الأمن الواقفين بباب البريد أن يساعدني بنقل الصندوق إلى السيارة لكنني اعتذرت بلطف وشكرته بابتسامة. كنت أريد أن أحمل الصندوق بنفسي ومن الجيد أنني استعدت سيارتي صباح اليوم من كراج التصليح فهذا سيجعل مهمة نقل الصندوق للبيت أسهل.

كنزٌ منك.. ياآآآآه ماذا يحتوي؟ لا أطيق صبراً. أريد أن أفتحه الآن فلن أصبر أكثر لاكتشاف محتوياته. أضع الصندوق في المقعد المجاور. ألقي حقيبة يدي في المقعد الخلفي للسيارة وأعود للصندوق لأبدأ بفتحه. يرن الهاتف قبل أن أنجز المهمة.

«عثرت الشرطة على جثة رجل مفقود منذ أشهر وعلينا الذهاب لموقع الحدث لتغطية الخبر».

أدرت محرك السيارة وتوجهت للمكان فوراً من دون أن أحظى بفرصة التلصص إلى الصندوق.

(14)

بعد يـومٍ منهِك عدتُ إلـى المنـزل برفقة الصنـدوق العجيب، دخلت غرفتـي بعد أن ألقيـت التحية علـى عجل مـن دون أن أُقبّل أمي كما اعتدت أن أفعل في كل يوم بعد عودتي من العمل. كانت تنتظـر عودتـي لتضع طعـام العشـاء. أمي لا تسـمح لأحـد بالتغيب عن وجبة العشـاء. تكرر الـكلام ذاتـه «ألا يكفي أنكـم لا تتناولون الغداء معـاً؟ كيف ستشـعرون بالجـو العائلي إن لم تجلسـوا سـوياً وتتحدثوا؟» تضيف «هـو إحنا يهود عشـان كل واحد يـوكل لحاله» لذلك كانت تجمعنا على المائدة وإن كنـا لا نريد تناول الطعام فلا مفر من الجلـوس برفقتهـم، ومراقبتهـم يتناولـون الطعـام ويتبادلون الحديث.

وضعـتُ الصنـدوق وسـط السـرير وفتحتـه أخيـراً وكان فـي الصندوق صندوق آخر أصغر حجماً بقليـل فوقه بطاقة حمراء كتب فيها «لا تفتحيه قبل منتصف الليل».

أحقاً!!

هل تريدني أن انتظر حقاً حتى منتصـف الليل لأعرف محتوى الصندوق؟ وأنا صبرت بأعجوبة حتى الآن من دون أن أفتحه! بماذا تفكر أيها المجنون! ثم بدأت جلسة المشاورات في عقلي:

- نفتحه الآن.

- ننتظر.

- لا بل نفتحه الآن.

- قلت لا فلننتظر.

وبعد حرب ضروس بين أناي الصابرة، وتلك العجولة انتصر الصوت الذي قال «ننتظر حتى منتصف الليل» سأكون فتاة مطيعة وأضع تمردي جانباً وسأنتظر كطفل مهذب طلبت منه والدته أن ينهي دروسه لتسمح له مشاركة أقرانه اللعب في الخارج. لكن ماذا سأفعل بكل هذا الوقت المتبقي حتى منتصف الليل؟ نزلت إلى الطابق السفلي لأشاركهم طعام العشاء بالرغم من أنني لم أكن جائعة، وكنت أريد أن أضحي بالطعام لأجل الصندوق، لكن بما أنني مضطرة للانتظار أكثر فلا مانع من تناول الطعام.

بعد الطعام ساعدت والدتي في تنظيف الأطباق وترتيب المطبخ لقتل المزيد من الوقت. ساعدت شقيقتي الصغرى في دروسها. شاهدت نشرة الأخبار مع والدي وتناقشت معه في بعض القضايا. الحادية عشرة قبل منتصف الليل ذهب الجميع إلى النوم وما زال هناك ساعة انتظار فماذا سأفعل؟

عدت إلى الغرفة جلست جلسة اليوغا إلى جانب الصندوق وبقيت أتأمله بلهفة ساعة كاملة. محدقة كالبلهاء. أرسم صوراً في عقلي وأخمن. الصندوق ثقيل ما هي الأشياء التي ممكن أن توجد في صندوق كبير وثقيل!؟

هناك احتمالات كثيرة، لا تحصى.

وبدأت أعدُّ الخراف كما قبل النوم لأمضى الوقت. تذكرت الأيام العصيبة التي مررتُ بها قبيل سفرك. كان قد مر وقت طويل من دون أن نلتقي وأردت أن أراك قبل أن تذهب، لكنك تملصت من الأمر بسهولة. ودعت أصدقاءك وأقاربك وكنت انتظر أن تطلب رؤيتي لكنك لم تفعل. شعرت يومها بأنني زوجة ثانية «سرية» لرجل ثري يغرقها بالمال والهدايا وهي لا تريد أكثر من أن ترافقه في نزهة قصيرة على مرأى من كل البشر. عقلي لا يصدق فكرة أنك تجاهلت لهفتي ومضيت. بقيتُ أياماً أبكي. لعنت يومها قسوة قلبك وبرودك وعقلانيتك. مضيت ولم تكترث بي، لم تضع احتمالاً واحداً للظروف. ما أدراك أننا سنعيش لنلتقي؟ من الذي ضمن لك أنك ستعود فتجدني؟ ثم ماذا لو طالت غربتك كثيراً من أين لي بالصبر على غيابك!

كنا في تلك الفترة أكثر من صديقين، حبيبين تحت مسمى الصداقة، حبيبين من دون اعتراف صريح، كان كبريائي يمنعني من الاعتراف لك بحبي قبل أن تعترف أنت، وكان شيء ما يمنعك من البوح لا أدري ما هو.

كتبت لك يومها رسالة قد تحرك قلبك ولا أصدق حتى الآن كيف تعاملت معها ببرود ولم تفهم أنني أحبك، أو ربما فهمت وتجاهلت. لم أكتب يوماً بهذا التأثر ولم يقابلني طيلة حياتي أحد بهذا البرود الذي قابلني به.

«لست قوية كما تعتقد، أنا هشة كقطعة بسكويت في يد طفل صغير يدعى الفراق، كيف أحافظ على نفسي ويده القاسية تدعكني!

منذ أيام، أدّعي أنني بخير وأجيد التمثيل لكنني بكل ما أوتيت من حب أريدك أن تمد يدك قليلاً نحوي، تمسح دمعة هاربة، تربت على كتفي المتعب وتهمس في أذني «كل شيء سيكون بخير».

أتمنى أن تمنحني الحياة الفرصة للبكاء على كتفك الدافئ بعيداً عن الوسادة الباردة، فأنا أخشى عليك كثيراً، أخشى أن تخذلنا الظروف فلا نعود ونلتقي؛ «وأنت حدي خايفة عليك، كيف لما تكون بعيد».

لا أخيفك سراً كان الحريق في قلبي يزداد اشتعالاً وأنت تحدثني عن الذين ودعتهم اليوم وستودعهم غداً، عن أمك وهي ترتب حقائبك، عن أخواتك يقبلنك ويحتفظن بوجهك في قلوبهن.

كنت أغار من كل من يلتقي بك، من كل يد تصافحك، وكل حضن يضمك، من دعوات أمك، من يديها حين ترتبان حقيبة سفرك، وعينيها حين تمارسان البكاء من دون خجل.

منذ عرفتك أدركت كم أكره عادات هذا المجتمع البغيض، تقاليده الغبية التي تسمح لك برؤية كل من هب ودب إلا وجهي أنا. كنت أتمنى لو أنك تدع عنك عقلك وتمارس بعض الجنون رغماً عن كل العادات والتقاليد:

تعال لباب بيتي

ناد اسمي

وسأخرج لك

أودعك

وأقرأ آية الكرسي على قلبك.

الفكرة بحد ذاتها قاتلة، أن لا أرى وجهك قبل السفر، لا أريد أن ألومك ولا أعلم إن كنت سأنسى يوماً، أو سأغفر ما حدث ويحدث لكنني أقسم أنني سوف آتيك من آخر الدنيا لأقتلك لو همس قلبك لقلبي دون علمك أنك نسيتني، أو تعثرت بأنثى بنصف جنوني! أو لو شعرتُ لثانية واحدة أنك لست بخير ولا تعتني بنفسك جيداً.

أرجوك كن بخير

لأجلي، لأجلك، لأجل أمك وكل من أحبك وانتظرك ودعا لك، ولا تنسَ أن تكون مع الله دائماً ليكون معك. وحافظ على صلاتك ودعائك ورضا والديك.

اعتدت طيلة فترة صداقتنا أن أحادثك كل مساء لساعات طويلة، وأعرف أنني في غيابك سأكون وحيدة، أكتب لك على ورق عتيق، أشرب القهوة، أقرأ الكثير من الكتب، أتشاجر مع أثاث غرفتي في انتظار رسالة منك. سأبذل كل جهدي لأكون فتاة طيبة، لن أحقد على القطط، وسأطعم العصافير التي تقف بنافذتي وأستيقظ باكراً لأراقب أول شعاع للشمس فأدعو لك كثيراً.

قد أزور والدتك يوماً ما، أقبل رأسها لأنها أنجبت لي صديقاً رائعاً مثلك، سأحضّر معها طعام الغداء وأقرأ لها رسائلك، وأقول لها أنك بخير. أما أمي فلا تقلق من أسئلتها الكثيرة عنك.

«بتذكر كان في وحدة مدايق منك

هيدي أمي، بتعتل همي

منك أنت، ملاّ أنت».

سأجيبها دائماً بما يمليه علي قلبي:

- ستنتظرينه؟

- نعم.

- إلى متى؟

- إلى أن يشاء الله أن نلتقي.

أرجوك لا تهزأ بي بقول «حاضر ماما» وأنا أمطرك بالنصائح «دير بالك على حالك، تناول طعامك في وقته، انتبه وأنت تقطع الشارع» فأنا أخشى عليك من ظلك، ومن الجيد أنني لن اضطر لمرافقتك للمطار، لا أريد أن أكره المطارات أكثر، ولا أريد أن ألوح لك بيدي فتلتفت لي في نظرة أخيرة لتراني أحترق شوقاً وبكاء.

لن تفرقنا الجغرافيا، لنا كل الأرض لنلتقي، وهذا الوداع ليس إلا اختباراً لصدق قلوبنا.

سأكتب لك الكثير من الرسائل، أحدثك عن كل التفاصيل، المهمة والأقل أهمية وحتى الساذجة. سأكتب لك كلما اشتقت إليك وأنا في كل ثانية اشتاق لكَ.

أما مشكلة ذاكرتي السيئة التي تنسى مواعيد الأصدقاء وكلامهم، تنسى كل شيء لا يتعلق بك، وتكتفي بسقف كفاية من تفاصيلك، سأحبها لأنها ستظل تذكرني بقلبك.

لا تنس وعدك لي. خذ في حقيبتك كل الكتب التي أهديتها لك، نفذ وعدك لي وأكتب على الصفحات البيضاء ما في قلبك لنقرأ ما كتبتَ معاً حين تعود».

* * *

أذكر أنني عشية سفرك، تحدثت إلى صديقتي التي رحلت قبلك بأشهر عدة، سافرت لتبدأ حياة جديدة في النرويج. قلت لَها أنك مسافر غداً ولم تودعني، قلت أنها الوحيدة التي تشاركني الجنون، ولذلك أتمنى لو أنها لم ترحل لتأتي معي فأودعك، وبختني بشدة وصرخت بي:

- رح يسافر بكرا ولسا قاعدة بالبيت عم تندبي حظك وما تحركتي، أنا مش فاهمة كيف قادرة تصبري. يلا بسرعة غيري أواعيكي واطلعي شوفيه قبل ما يسافر. شوفيه حتى ما تندمي بعدين إنك ما ودعتيه. اطلعي ورني عليه واحكيله معك خمس دقايق تكون لهلأ قدام عيني وإلا رح آجي أنا لعندك.

لكن عقلي كان يحكم قبضته جيداً على جنوني، قلت لها أنني لن أسعى إليك إن لم تسعَ إليّ حتى لو ندمتُ لاحقاً. قلت إنك إن لم تطلب رؤيتي فأنا أيضاً لا أريد أن أراك. كنت أتحدث من وراء قلبي. أضع يدي على الجرح لأقنع نفسي أنني لا أنزف. واخترت يومها أن أودعك على الهاتف. كانت تلك المرة الأولى التي نتحدث بها صوتاً. أمسكت الهاتف بيد مرتجفة وكان قلبي ينبض بشدة، نظرت إلى الساعة كانت تشير إلى السابعة وسبع دقائق طلبت رقمك وجاء صوتك كأنه الحُلم، شعرت كأنني أتنفس

لأول مرة في حياتي، وتساءلت كيف يكون صوتك رئة أتنفس بها؟ لم نتحدث كثيراً كنت أشعر بالخجل والارتباك، تمنيت لك رحلة موفقة وأغلقت سماعة الهاتف.

عندها وصلتني منك رسالة مذهلة وعلى الرغم من أنك لم تكتب فيها إلا ثلاث كلمات «مطر.. مطر.. مطر» إلا أنني شعرت أنها أجمل رسالة استلمتها في حياتي.

قاطعت دقات الساعة صوت أفكاري، إنه منتصف الليل ويمكنني أن أفتح الصندوق.

كانت يدي تفك الشرائط الحمراء وقلبي على الهاتف، سبقني فضولي لمعرفة ما في الصندوق، ووهبته كل حواسي، فبدأت بنزع الشرائط ثم نزعت أوراق التزيين التي تغلفه، فتحت العلبة. على السطح تطفو رسالة في مغلف أبيض ذي إطار بخطوط مائلة حمراء وزرقاء.

فستان أحمر قصير، ساعة ذهبية، مجسمين صغيرين للأماكن الأثرية التي يبتاعها السياح في بلد غربتك وأهم ما في الصندوق كانت الرسالة:

«كل عام وأنت حبيبتي، عيدك سعيد».

حبيبتك؟

هل أنا «حبيبتك»؟ هل أحلم؟ هل هذا الصندوق لي؟ هل تمزح معي؟ لا أنت لا تمزح إلا نادراً. هل أخطأت وأخذت صندوقاً آخر؟ لا.

أهذه كذبة نيسان؟

لا، نحن لسنا في نيسان، هكذا كنتُ أسأل وأجيب. نحن في فصل الخريف وتحديداً في أيلول، السادس عشر من أيلول واليوم.......

آآآآآه اليوم عيد مولدي الثالث والعشرين! كيف نسيت شيئاً كهذا!

ثلاثة وعشرون ربيعاً، لا بل اثنان وعشرين خريفاً وربيعٌ واحد هذا الذي كنتَ معي فيه وكنتُ حبيبتك.

بعض الرسائل على الرغم من قلة كلماتها تقرأها فيذوب قلبك، تثمل بالحروف المضيئة، يُبللك مطر الدهشة، ويُتعبك الحنين.

أنتَ ابن السماء

تحضر فتتشكل فيَّ غيمة فرح تمطرني بسعادة استثنائية، ولهذا كلما شعرت بقربك نسيتُ صحرائي وجفافي وصرتُ حديقة خضراء، جنة على الأرض.

سارعت إلى جهاز اللاب توب، إلى صفحة الفيسبوك، ثم سريعاً إلى نافذة الرسائل وهناك كانت رسالتك. أنا لا أصدق ما يحصل الآن. أنا أُحدثك من خلف الشاشة الزرقاء وهذه المرة لستُ صديقتك. أنا حبيبتك وأنت حبيبي ونحن هذه الليلة التي كبرت فيها عاماً حبيبين لا يفرقهما شيء، ولا تقف بينهما المسافات والحدود. لا أحتاج جواز سفر ولا بطاقة طائرة ولا صالة انتظار لأعبر إلى قلبك. أنا قلبك وحواسك ولهفتك.

كنت دائماً أشعر أنني بالرغم من ذكائي في الحب غبية، لا

يوجد امرأة ذكية تضع رجلاً على رأس لائحة أولوياتها فيما تجلس على هامش حياته، لا يوجد امرأة ذكية تمشي خلف عواطفها مسلوبة الإرادة، تهتم أكثر مما يجب وتفني عمرها لأجل رجل.

أمسكُ ثوب الصداقة الذي تفصله لي فلا يناسب مقاسي. لم أعرف المساحة الحقيقية التي استطيع التحرك فيها كصديقة. كنتَ تردد على مسامعي كلمة «صديقتي»، في اليوم الواحد والسطر الواحد أكثر من مرة لتذكرني أنني صديقة. كنت أغضب وأُجن، ليس منك بل من نفسي لأنني عاجزة أمام حبك، وعاجزة عن التوقف خلف الحدود التي تفرضها الصداقة والتلويح للحب من بعيد، من خلف السياج.

أستمع لكلامك أو تحديداً أقرأه من خلف الشاشة وأتنهد هل أنت أنت؟ هل هذا الحب لي؟

كانت هذه الليلة أعظم ليلة في حياتي، بعد أن تعبتَ وذهبت للنوم حاولتُ أن أنام لكنني فشلت. كنت خائفة أن أغمض عيني فاستيقظ على واقع آخر غير الذي نمت عليه. خائفة أن يكون هذا كله حلم، أعدت تشغيل جهاز «اللاب توب» لأقرأ حديثنا من جديد وأتأكد من أن هذا حقيقي. حقيقي جداً. وددت تلك اللحظة لو أكون إلى جانبك أُمسك بيديك وأسير معك في كل طرقات هذا الوطن، أطرق كل الأبواب وأقول لكل العالم «هذا حبيبي ووطني».

تذكرت كل المرات التي خذلتني فيها بصمتك وبرودك، كل المرات التي بكيت فيها بسببك. كل الأمنيات البسيطة التي أردت أن أحققها برفقتك قبل سفرك. تذكرت كيف أنني ومهما بلغ حد

غضبي منك أنسى كل شيء وابتسم لمجرد ظهور رسالة منك مثل طفل صغير ترضيه قطعة حلوى أو حضن دافئ.

تذكرت أول «صباح الخير» قلتها لي في صباح ماطر. أول مرة جلست فيها إلى جانبك في أمسية شعرية. ارتباكي ارتباكك. الصمت الذي ساد بيننا. البريق في عيني وعينك. دقات قلبي التي خشيت أن يعلو صوتها فتفصح حبي لك من دون إذن مني. حضورك الذي طغى على الشاعر الكبير وكل المثقفين الذين كانوا هناك. الزمان الذي توقف واتكأ إلى عمود الإنارة المجاور للمقعد الخشبي الذي جلسنا عليه ليتأملنا عن قرب، وكل الكلام الذي كان من الممكن أن نقوله فلم نستطع.

- لماذا تنسى حين تلقاني نصف الكلام؟

- باختصار لأني بحبك!

قلت لك أنني بعد كل مرة تقول فيها أحبك أحتاج لنصف ساعة على الأقل لتأمل الكلمة والغوص فيها ثم استعادة اتزاني.

- ما في وقت، كل لحظة معك حلم خليني أغوص فيه لآخره وآخري معه.

- بس ما تغرق.

- تحذير أم تهديد أم استهزاء؟

- ولا وحدة منهم

-...؟

- معك حلو الواحد يكتشف متعة الغرق.

استعيد الحديث الذي دار بيننا هذه الليلة، أغادر سريري وأرقص في فضاء الغرفة، ثم أجلس وأبكي، أبكي فرحاً. أسأل نفسي أي خير فعلته في حياتي ليكافئني الله بك.

أي صدفة جميلة هذه التي جمعتني بك.

(15)

- كنتُ أفهم كل كلمة تقولينها، كلماتك التي تحمل بين طياتها الكثير.

- لكن لماذا؟ لماذا انتظرتَ كل هذا الوقت إن كنتَ تعلم أنني أحبك؟

- كل المفاهيم التي عرفتها في حياتي اختلفت بوجودك، ولأنني أحبك كنت أخاف من البوح جداً.

مثل كاسيت يدور، ما زال حديث الليلة الماضية يدور في رأسي.

- أعيدها؟

- لحظة، بدي خمس دقائق صمت.

- ما في صمت. أعيدها؟

- شو هي؟

- ما بتعرفي؟

- بعرف بس بعمل حالي «غشيمة».

- بحبك، بحبك، بحبك.

الصباح مُختلف، أشعر بأنني ولدت من جديد، للصباح رائحة

البرتقال ونكهة القهوة وابتسامة طفل صغير. كم يبدو الكون مسالماً وأليفاً. صوت العصافير نقي لا يلوثه ضجيج البشر. ابتسامة أمي مُشرقة والغيوم التي تغطي السماء تلوِّح لي من بعيد «هذا الصباح لكِ».

روحي خفيفة كريشة أو فراشة. ابتسامتي... آآه من ابتسامة لا استطيع إخفائها تفضحني بتراقصها على وجهي. أهذا هو الحب؟

أزحت الستائر عن النافذة وفتحت باب الشرفة. بيت يافا هادئ كالعادة. لا أرى طيفها من خلف الستائر. يبدو أنها ما زالت نائمة. اليوم الجمعة سيزور الصبي الذي يعمل في بقالة الحاج أبو سليم منزل يافا. ما زلت انتظر رداً على رسالتي التي وضعتها في صندوق البريد الخاص بها، لدي بصيص أمل صغير أن تكون قد استلمت الرسالة وأنها ستبعث رداً مع هذا الصبي.

حاولت جعل الرسالة مختصرة كي لا أثقل عليها بالحديث، هي التي اختارت العزلة هرباً من ثرثرة البشر، كانت الرسالة قصيرة لكن كافية لتنتقل لها أمنيتي بلقائها.

«السيدة يافا،

تحية طيبة وبعد،

أرجو أن تقرئيني بقلبك، كما أكتب لك الآن بقلبي. إنه الخريف، أيلول، وورق أصفر يملأ الشوارع. الصيف حزم أمتعته ورحل تاركاً الطريق خلفه خالية ليمر الخريف فيأخذ الحزن الميت فينا، ويمنحنا مع الشتاء والربيع فرحاً يزين أشجار الروح والقلب. لا أريد أن أُشعركِ بأنني غريبة، فأنا أعرفك منذ زمن، نحن نعرف

الأشـخاص حولنا بإحساسـنا بهم حتى لو لم نلتقيهم ولهذا أستطيع أن أقول أنني أعرفك.

لسـت متطفلـة. لكـن إحساسـاً مـا همـس لـي أنـك وحيـدة وتحتاجين كف صديق - أتمنـى أن أكون هذا الصديق - يشـاركك أيام الشتاء.

منذ أشـهر وحتى الآن أمارس الطقوس ذاتها كل مسـاء، أفتح شـرفة غرفتي التي تطل على بيتك، أتأمل طيفك من خلف السـتائر البيضاء، أسـمع معك الموسـيقى وأغنيـات فيروز، ألقـي على بيتك تحية الصباح وأنا متوجهة إلى العمل لكنك لا تسمعين ولا تجيبين. تظللنا سـماءٌ واحـدة، وتحملنـا أرض واحـدة، أتنفس الهـواء الذي تتنفسين، وأشعر بالشجن العظيم كأنني أقرأ قلبك فأتمنى بيني وبين نفسـي لو أنني مخلوق أثيـري يمكنه التلاشـي للدخول إلـى بيتك، ومشاركتك السهر وفنجان قهوة تعدينه لي كصديقة وفية.

ثم أعود وأقول لنفسي لماذا ستقبلين صداقتي وأنت منذ عشرة أعوام ترفضين فتح بـاب بيتك لأحد! هـل هي ثقـة بالنفس وغرور يجعلنـي مميزة عـن الآخريـن الذين سـبقوني أم هو حـدس تتنبأ به حاستي السادسة التي لم تخطئ قبل اليوم.

أنـا جارتـك الثرثـارة «ثرثـارة فقط مـع من أحـب»، عشـرينية، مراسـلة صحفيـة لقنـاة تلفزيونيـة، طفلـة صغيـرة تعشـق المطـر والموسـيقى والشـعر ورائحة الكتب، القهوة، التـراب المبلل بالمطر وأحضان الأمهات والأطفال. كاتبة صغيرة وأم لرواية وحيدة تنام في المكتبات والمخازن وبيوت بعض القراء الذين قرروا غمرها بدفئهم.

كنحلة نشيطة، أبحث كل يوم عن تفاصيل حكايتك. أسأل أهل الحي عنك. أتلصص عليك من بعيد، أراقبك تتناولين الأكياس التي وضعها البقال أمام باب بيتك، وأكتب عنك لصديقي المغترب في بلاد باردة. أقول له إنني أحبك وأريد قربك وصداقتك فيتهمني بالتطفل والجنون. قد يكون محقاً بعض الشيء فأنا مجنونة وجريئة لا أكترث للخوف منذ عرفت أن الخوف أكبر عدو لسعادة الإنسان. أحارب باستماتة للحصول على ما أريد وللوصول إلى أحلامي وأمنياتي. ومنذ أن صرتِ أحدى الأمنيات قررت أنا أمارس شجاعتي وجنوني فأرسل رسالتي إليك. أَضعها في صندوق البريد وأدعو الله أن لا تبقى هناك طويلاً فالليل بارد والوحدة أيضاً. لا أريد لرسالتي أن تكون وحيدة بل أريدها أن ترافقك وتلتمس دفئك.

أحمل في قلبي الكثير من الأحاديث التي أريد أن أقولها لك، الكثير من الحكايات، فهل ستفتحين لي بابك وقلبك؟ هل ستأذنين لي بزيارتك ذات يوم؟ أم أن بابك سيظل مغلقاً للأبد كمحارة لا تريد الكشف عن لؤلؤتها. أما زال في أيامك متسع لصديق جديد، وحماقة جديدة، وجنون؟

سيكون يوم السعد إن منحتني فرصة واحدة لأكون بقربك، أضيء لك الليل وأفرش أمام روحك حديقة ياسمين. سأحترم رفضك لكنني أريده رفضاً صريحاً وموضحاً وإن لم يكن كذلك سأظل أحاول مراراً وتكراراً ولن أيأس منكِ أبداً، فكما قال درويش «ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل».

أنتظر ردك بفارغ الصبر».

مر صباح الجمعة وظهره بهدوء ورتابة، مشتتة ما بين حب جديد وانتظار. ماذا تراك تفعل الآن؟ لماذا يخمن المحب طيلة الوقت حال الآخر؟ تنتابك رغبة فضولية لمعرفة كل التفاصيل المتعلقة بمن تحب، حاله في كل ثانية، طعم قهوته، لون ملابسه، تصفيفه شعره، الأشخاص الذين يرافقهم، الساعة التي يتناول فيها طعامه، الطرقات التي سار بها. وكل شيء. كل شيء.

بينما كنت أفكر بك، أتى الصبي الذي يعمل في بقالة أبي سليم ووضع حاجيات يافا أمام باب بيتها، طرق الباب لكنها لم تفتح فعاد أدراجه.

كنت أود أن أصرخ في تلك اللحظة. لماذا لم تخرج؟ لماذا لم تسلمه الرسالة التي انتظرها منها؟ هل أخذت الرسالة من صندوق البريد فقرأتها وتجاهلتني أم أنها لم ترها بعد.

لا أدري لماذا غضبت لهذا الحد على الرغم من أنّي لست متأكدة من أنها استلمت الرسالة حتى، وأنّي أعرف أن الأمر لن يكون سهلاً أبداً، فامرأة استطاعت أن تعتزل البشر لعشرة أعوام لن ترد على رسالة من فتاة غريبة في نصف عمرها تقريباً بهذه السهولة. علي أن أحاول وأحارب بأقصى ما استطعت لأحصل على ما أريد. إن كنت أريد أن أقابل يافا عليَّ أن أستحق مقابلتها أولاً.

أنا لا أطيق الاحتمالات المتعددة، لذلك أردت أن أقلصها إلى أدنى حد ممكن. ألقيت نظرة أخيرة على منزل يافا ثم دخلت إلى

غرفتي، تناولت الشال الذي أغطي به كتفي حين أشعر بالبرد عن السرير، الجو متقلب هذه الأيام يكون دافئاً لساعات ثم يصير فجأة بارداً كأننا في الشتاء. ثبَّتُّ الشال على كتفي وخرجت. على عجل هبطت درجات السلم ثم توقفت قليلاً أمام المرآة في البهو لأرتب شكلي مرة أخيرة قبل الخروج.

أغلقتُ باب المنزل وقبل أن أعبر الشارع الضيق الذي يفصل بين منزلي ومنزلها ألقيت نظرة على الأطفال الذين يلعبون كرة القدم في منتصف الشارع أمام بقالة الحاج أبي سليم. كان أبو سليم كعادته جالساً أمام البقاله يراقب المارة تارة، ثم فجأة يرفع يده مُرحِّباً وراداً السلام على أحد الجيران، وتارة أخرى يتأمل الأطفال ويشجعهم في مباراتهم الصغيرة ويحل مشاكلهم التي غالباً تنتهي بها المباريات.

أما جارتنا أم وديع فقد كانت تقف بباب الحاجة فتحية، يكملان حديثاً بدآه، ذلك الحديث الذي لا يتسع الوقت لإكماله داخل المنزل، فيكمله الأشخاص عادة على الباب وهم يرددون «تأخرت وصار لازم أروح».

الحاجة فتحية ليست كبيرة في السنّ كما توحي كلمة «حاجة». أظن أنها على مشارف الخمسين لكن أهل الحي يفضلون مناداتها بلقب الحاجة لأنها حجت إلى بيت الله الحرام في صباها. حياتها مليئة بالخيبات، في صباها اختارت أن تبقى إلى جانب أمها المريضة والمقعدة لتعتني بها بعد أن تزوج كل أخوتها وأخواتها، رفضت الكثيرين ممن تقدموا لخطبتها. وحين توفيت أمها كان

قد فاتهـا قطار الـزواج «على حد تعبيـر المجتمع الشـرقي»، فرفض إخوتهـا بقاءها في بيـت الأم لوحدها، وانتقلت لتعيش أسـبوعاً عند كل واحد منهـم بعـد أن باعوا البيـت وتقاسـموا ثمنه مـن دون أن يعطوهـا أو غيرهـا مـن أخواتها البنـات قرشـاً واحداً، كانـت تذوق المـر من زوجـات الإخوة، تسـمع الكلام الجـارح وتبلعـه بصمت. كل الذيـن تقدمـوا لها في تلـك الفترة إما شـيوخ على حافـة القبر، أو مطلقين، أو أرامل، أو متزوجين من زوجـة أخرى، ولديهم قبيلة أولاد لكنهم يريدون زوجة بهدف الزواج لا أكثر.

في نهاية الأمـر كان للنصيب كلمة فتزوجت مـن رجل يكبرها بثلاثيـن عامـاً أو يزيد، متـزوج ولديه سـتة أبناء شـباب مـن زوجته الأولى. اشـترى لهـا بيتاً فـي حيِّنا وسـكنت فيها، كان يبيـت عندها يومي الخميـس والجمعة وبقيـة الأيام عند زوجته الأولـى. بعد عام أنجبـت له يوسـف، ثم بعـد ثلاثة أعـوام مـن مجيء يوسـف توفي الـزوج تـاركاً خلفـه أرملة فـي الرابعـة والثلاثيـن من العمـر وطفلاً صغيراً.

كان يوسـف طفـلاً شـقياً ومـا زال علـى الرغـم مـن أنـه بلغ الخامسـة عشـرة هذا العام. تقول له لا تخرج بعد غروب الشـمس فيخرج ولا يعـود إلا بعد منتصف الليـل. ترجـوه أن لا يرافق فلاناً من الناس فهـو ولد سـيء فيرافقه مـن دون أن يسـمع كلامها. منذ أيام رأيته فـي الشـارع أمام مدرسـة البنـات بينما كنـت أوصل أمي صباحاً، كان يتسـكع مع بعض «الصعاليك» يلاحق الفتيات ويدخن. صرخت في وجهه وقلت له أنني سـأخبر أمه فلم يكترث بي، ونظر

إليّ نظرة احتقار!

كلما تذكرت الحاجة فتحية دعوت لها أن يكون الله في عونها، ويلهمها الصبر ويصلح لها هذا الولد الشقي ليكون عوناً لها في كبرها، لا سبباً في موتها بجلطة قلبية بسبب مشاكله وحماقاته.

عبرتُ الشارع متوجهة إلى منزل يافا، وبينما كنت أسير إلى الطرف الآخر من الشارع أشرت بيدي لأم وديع، والحاجة فتحية من بعيد كتحية. وقفت أمام البوابة الحديدية البيضاء، تحديداً إلى جانب صندوق البريد. تأملت الحديقة من فتحات البوابة.

الطريق ممهدة بممر حجري ما بين البوابة الخارجية والداخلية، على جانب الممر من الجهتين صفان من الأزهار «يبدو أنها تعتني بالحديقة جيداً! لكن متى وكيف؟ في المساء ربما والناس نيام! كل شيء معقول!».

في هذا الجانب من الحديقة أشجار لوز وزيتون، أشجار الزيتون تحمل على أغصانها الكثير من حبات الزيتون التي اقترب موسم قطافها، لكن من سيقطفها لها؟

حسناً لقد جئت لأتأكد بنفسي أنها استلمت رسالتي، نظرت إلى يميني ويساري لأتأكد أن لا أحد يراقبني، كمن يخطط لفعل قبيح أو كسارق، نظرت من الفتحة الضيقة في الصندوق لكن الصندوق معتم فلم أر شيئاً لأنني أقف قبالته تماماً وأحجب عنه النور، وقفت بشكل جانبي لأسمح للنور اختراق الفتحة الضيقة وبعد محاولات عدة لاختبار أفضل مكان للوقوف من دون حجب الضوء، نظرت من جديد فكان الصندوق فارغاً تماماً. وما أن

رفعت رأسي ونظرت أمامي التقت عيني بعيني يافا!

كانت تحـدق بي وقد اتسـعت أحداقها بغضـب لا يخفى على من يتأملها، لم أعرف كيف أتصرف أو ماذا أقـول. تجمدت مكاني كصنم حجري. وبعد دقائق حسـبتها سـنوات، تناولت الأكياس التي أحضرها الصبـي قبـل سـاعات وأدارت ظهرهـا لي. دخلـت البيت وأغلقـت الباب فـي وجهي فشـعرت أن الأرض تزلزلـت من تحت قدمي.

(16)

مرَّ أسبوع على تلك الحادثة وما زلت أشعر أنها حصلت الآن، كنت خجلة من نفسي ومن الانطباع الذي تركته عند يافا، أردتها أن تحبني وتشعر بالألفة ناحيتي، لا أن أثير غضبها وأجني كرهها لي. كنت كلما تحدثت معك في هذا الموضوع تنفجر ضاحكاً من الموقف، وتتهمني بالتهور والتطفل «لماذا لم تنتظري أن ترد على رسالتك؟ لِمَ العجلة؟».

لا أذكر ما كانت ترتدي، ولا كم من الوقت بقيت تراقبني وأنا اختلس النظر إلى صندوق بريدها. لا أعرف متى خرجت، أو لماذا لم أسمع صوت الباب حين فتحته. لا أذكر إلا نظراتها الغاضبة المصوبة نحوي. في مثل هذه المواقف أنا أنسى كل شيء إلا الأكثر تميزاً. حين كنت أحدثك وجهاً لوجه أنسى كل شيء إلا أنني أحبك، ومع يافا نسيت كل شيء إلا نظراتها التي تتفرس وجهي.

من المؤكد بما أنها قرأت الرسالة أنها عرفت أنني المُرسلة. لكن لماذا لم توبخني أو تصرخ بي؟ كيف استطاعت أن تحافظ على هدوئها من دون أن تقول كلمة واحدة. تجاهلها قاتل، كيف استطاعت أن تدير ظهرها بكل هذا البرود وتغلق الباب في وجهي؟

لو أنها وبختني علـى فعلتي لكان تأنيب ضميـري أقل حدة مما هو عليه الآن.

بحثـت طيلـة الأسـبوع عـن طريقـة اعتـذر بهـا. أتأمـل منزلها كل مسـاء لكـن الصمـت يطغـى علـى كل شـيء، لـم تعد تستمع لسـيمفونيات بيتهوفـن، ولا أغانـي فيـروز، وماجدة الرومـي أو إلى مقطوعـات آلـة الكمـان. في الصبـاح أُلقـي نظـرة إلى شـرفتها قبل أن أتوجه إلـى العمل فلا أراهـا ولا ألمحها خلف السـتائر البيضاء. شعرت أنها سفينة طوت أشـرعتها ورحلت إلى مكانٍ مجهول. كأن مثلث برمودا ابتلعها ولم يترك لها أثراً يُذكر.

اقترحت علي فـي نهاية المطـاف أن أكتب لها رسـالة اعتذار، لم أكن أثق بمدى نجاح هذه الفكرة فهي لن تجيب على أي حال، لكن لا خيار آخر. جلست إلى مكتبي وأخرجت حزمة من الأوراق التـي أخصصهـا لكتابـة الرسـائل وبـدأت أكتـب. لـم أجـد كلمات الاعتذار المناسبة. بحثت في أبجديتي فلم أعثر على كلام يعبر عما في قلبي. مزقـت الكثير مـن الأوراق. أكتـب ثم أقرأ مـا كتبت. لا يروق لي. فأمزقه. ثم من جديد أُعيد الكرة حتى تعبت فاخترت أن اكتب كلمات مختصرة وبسيطة فخير الكلام ما قل ودل. كتبت:

«أعتذر عـن اختراقـي خصوصيتـك وتطفلـي على بريـدك. لم أكن أقصد إثارة غضبك أبـداً. لكنني عجولة ولـم أصبر لأعرف إن اسـتلمت رسـالتي أم لا فقررت تفقد بريدك لأتأكد مـن هذا الأمر، أعرف أن تصرفي كان مزعجاً وغير مهذب.

منذ ذلك اليوم لم ألمحك أبداً ولم أسـمع صوت الموسـيقى،

أربكني هذا الأمر كثيراً وخشيت أن تضيفي حاجزاً آخر بيننا، كأن الحواجز الموجودة ليست كافية.

أتمنى أن تغفري زلتي هذه وتفتحي باب قوقعتك قليلاً، ليدخل الضوء والهواء النقي إلى روحك، وأتمنى أيضاً أن تعيدي التفكير في زيارتي لك».

هذه المرة وقعت الرسالة باسمي كاملاً على عكس الرسالة الأولى التي لم أكتب اسمي عليها. طويت الورقة ووضعتها في مغلف ورقي، أخذت زهرة ياسمين من المزهرية الموجودة حتى الطاولة وأرفقتها مع الرسالة. تركت الظرف على المكتب حتى الصباح لأضعه في صندوق البريد حين أتوجه إلى العمل.

كانت هذه الليلة أشد برودة من سابقاتها، فالشتاء يقترب. بينما كنت أتحدث إليك اعترفت لك بسر صغير كنت قد احتفظت به لنفسي منذ عرفتك.

بقدر ما كنت أرغب بتجربة الحب والغوص في تفاصيله كنت أخاف كلما شعرت بأنني على وشك أن أقع في الحب. وغالباً كنت أجد عيباً كبيراً في كل شخص يحاول إثارة إعجابي. أنا امرأة متطلبة ولا أرضى بالقليل، وسقف توقعاتي مرتفع جداً للشخص الذي سأحبه. ولهذا حين رأيتك ذلك المساء وشعرت أنني أنجذب نحوك قررت أن أبحث عن عيبك الكبير الذي سيجعل رسوبك محتماً في اختباري، فقد كنت أكره الأشخاص لمجرد أنهم يحبون شيئا أكرهه، أو يكرهون شيئا أحبه. لم أكن لأقبل بفكرة أن أحب شخصا لا يحب درويش، أو الياسمين، والمطر. طلبت

يومها من صديقتي أن ترسل لي معرفك الشخصي على الفيسبوك وغالباً تستطيع من حسابات الفيسبوك أن تكون فكرة أولية عن الأشخاص. قرأت يومها كل حرف كتبته وكل مقولة شاركتها مع أصدقائك، ونوعية الأغاني التي تسمعها فأصبت بخيبة أمل. لأن ذوقك في كل شيء مطابق تماماً لذوقي، تعشق درويش ومارسيل خليفة وأمل دنقل وأحمد مطر وماجدة الرومي، زهر اللوز والياسمين، موسيقى الكمنجات، فيروز وآآآه من فيروز، أيعقل أن نجد بيننا كل هذا التشابه؟

قلت لنفسي عندها أن حساب الفيسبوك لن يحمل الصورة الحقيقية عن الإنسان، ففي هذه الأيام يستطيع الشخص أن يتحول من صعلوك إلى داعية في لحظات فقط بنشر عبارات دينية، ومن جاهل إلى مثقف بمجرد قيامه بنشر بعض الاقباسات المسروقة من هذا وذاك. ولهذا لن أثق بكل ما رأيته في حسابك. سأسأل شخصاً يعرفك عن قرب فالتعامل المباشر يعطي صورة أفضل عن حقيقة الشخص. ولهذا سألت أحد أصدقائك بطريقة غير مباشرة فقال أنك أفضل شخص عرفه في حياته فجن جنوني أكثر!

كنت تستمع إليّ مندهشاً، أو هكذا تخيلت ملامحك من خلف الشاشة. قررت في نهاية المطاف أن عليّ أن أحدثك شخصياً لأكرهك، فالأشياء التي نراها من بعيد تختلف جداً عندما نقترب، في اعتقادي ظننت أنني سأجد في شخصيتك صفات أكرهها، كنت تروق لي كثيراً فخفت من الوقوع في حبك وحدث ما كنت أخشاه فأحببتك، أحببتك جداً، بكل تفاصيلك.

سألتك مرة متعجبة من التشابه الكبير بيننا، هل صحيح أن الأقطاب المتشابهة تتنافر؟ فرددت على سؤالي بسؤال كما اعتدت أن تفعل دائماً.

- هل تذكرين ماذا قالت أحلام مستغانمي عن تلاقي الجبال؟

تقول مستغانمي في ذاكرة الجسد «الذين قالوا الجبال وحدها لا تلتقي.. أخطأوا. والذين بنوا بينها جسوراً، لتتصافح دون أن تنحني أو تتنازل عن شموخها.. لا يفهمون شيئاً في قوانين الطبيعة. الجبال لا تلتقي إلا في الزلازل والهزات الأرضية الكبرى، وعندها لا تتصافح، وإنما تتحول إلى تراب واحد.لستِ حبيبتي.. أنتِ مشروع حبي للزمن القادم. أنت مشروع قصّتي القادمة وفرحي... القادم.. أنتِ مشاريع عمري الآخر. وافترقنا إذن فما أجمل الذي حدث بيننا.. ما أجمل الذي لم يحدث.. ما أجمل الذي لن يحدث».

لم يكن هذا كافياً لأطمئن، فقد كنت أخشى أن نفترق يوماً بسبب هذا التشابه الكبير بيننا، أن تمل مني يوماً فترحل عني وتتركني، ولهذا كنت أحرص دائماً أن لا أكون تقليدية بل متجددة لأذهلك بكل كلمة أقولها لك وكل مفاجأة أفاجئك بها، ولحسن حظي وحظك كنت أنجح دائماً.

(17)

لو كنتَ قريباً

لسبقتك إلى مكان عملك،

رتبت الصباح لأجلك:

أزهار على المَكتب

شوكلاته في الخزانة الصغيرة

أسفل الطاولة

وملاحظة صغيرة بين أوراقك:

(أحبك)

لو كنتَ قريباً

لما سمحت لك أن تبدأ صباحك من دون إفطار شهي

صنعته بالحب خصيصاً لك

لتبعتك حتى باب البيت

باللقمة الأخيرة

التي تسبق قبلة على الجبين

لو كنتَ قريباً

لما سمحت لامرأة عاملة

أن تعتني بملابسك

كنت سأرتبها لك

وأعتني بها

كما تعتني الأم بطفلها الصغير.

حتى الآن لا أصدق أن الكابوس الذي كنت أعيشه انتهى، أن الخلاف بيننا انحصر وتجاوزناه بسلام. نحن الآن بخير وحب، استطعنا استعادة علاقتنا وإنقاذها من فراق كبير.

ليلة بحت لي بِحُبكَ قلتَ:

«أنا أحبك لأجل الحب فقط، أنا إنسان مُشتت، منذ زمن بعيد كنت سأعترف لك بحبي لكن خوفي كان يمنعني. خوفي من الطريق الطويل، من أني لن أستطيع تقديم شيء لك سوى حبي، أو بمعنى أفضل «أحبك يوماً لأجدد يوماً وأمضي»، هذا لا يعني أنني سأتوقف عن حبك يوماً ما، أنت تفهمينني جيداً، لا تعلقي علي الكثير من الآمال، أنا لست نهاية العالم، في اللحظة التي سأشعر بها أن الوقت حان للانسحاب، سأنسحب، وسأترك المكان خلفي لرجل يستطيع تقديم كل شيء، المال، المنزل، وغيرها من مقومات الحياة».

للوهلة الأولى خين سمعت هذا الكلام أصبت بخيبة أمل، لكنني رأيت بصيص نور صغير يلوح من بعيد، فربما تغير رأيك

مع الأيام. كانت سعادتي بكلمة أحبك التي انتظرتها أكبر من أن التفت لأي شيء آخر، أردت أن أنظر لنصف الكأس الملآن، ولا أنغص مزاجي بأي شيء آخر. لم أكن بكامل وعيي ذلك المساء، ولو كنت كذلك في حينها لقلت لك: احتفظ بحبك لنفسك، لست وقتاً مستقطعاً، أو مرحلة تتخلص منها سريعاً، إما حباً كاملاً ووعداً أبدياً أو لا شيء.

ما حدث قبل مدة أثار رعبي وذكرني بكل الكلام الذي قلتَه آنفاً، رأيت في المنام أنك تقدمت لخطبتي، وكان كل شيء يسير على ما يرام، أفراد عائلتي وعائلتك متفقون وسعداء. لكن فجأة جاءت والدتك إلى منزلنا ووقفت تحدثني، لا أذكر ما قالت لي، لم تقل شيئاً سيئاً، كانت طيبة جداً ولطيفة إلى أبعد حد، لكن أختك الصغرى كانت ممسكة بطرف ثوبها وتنظر إليّ بحقد، ثم بدأت تصرخ بي وتقول لي «أمي تكذب عليكِ لأن أخي يحبك، لكن نحن لا نريدك، كلنا نكرهك، أنا وأمي وأبي وأخوتي، لا نريدك في عائلتنا».

استيقظت من الحلم أرتجف برداً ورعباً وكنت أبكي، لم استطع الانتظار حتى الصباح، كنت أريد من يقف إلى جانبي، أمسكت الهاتف واتصلت بصديقتي وأخبرتها بما رأيت، حاولت تهدئتي، ثم اقترحت عليّ أن أصارحك بمخاوفي، لنتفق على طبيعة علاقتنا. وهذا ما حصل في الصباح حاولت أن أخبرك بمخاوفي بطريقة غير مباشرة، لكن الحوار خرج عن سيطرتي، وأزعجك كلامي، فحاولتَ تجنب تطور النقاش وأنهيت المحادثة.

هروبك من هذا النقاش أثار غضبي أكثر فأرسلت إليك رسالة زادت الأمر بيننا سوءاً:

«أنـا لا أجيد ممارسـة الفـرح، خائفـة، وأفتقـد الطمأنينـة التي يفترض أن أشـعر بها وأنا معـك، أريدك - لمرة واحـدة على الأقل - أن تكون جريئاً بما يكفـي لتقول «أنتِ لي». أنـت تعرف أنني لا أطالبـك بالكثير، أريـد فقـط أن أرى أهميتنا فـي عينيك، أن أشـعر بأنك تسـعى لأجلنا، لنكون تحت سـقف واحد، فأشـعر أنني لست مرحلة مؤقتة تحبني فيها بجنون، ثم تتركني لرجل آخر.

لا يكفي أن تحبني لأكـون بخير! الحب وحـده لا يكفي امرأة أقصى أمنياتهـا أن تلبس لك فسـتاناً أبيـض، وتنجب لـك قبيلة من الأطفال. الحب الـذي لا يجعل الأحـلام وردية ولا يطـرد الخوف بعيـداً، الحب الذي يجعلك تسـتيقظ عنـد الفجر مـن كابوس بوجه غارق في الدموع ليس تماماً ما أريد.

عليك أن تعلم أنني حين احتفظ بقلبي في ثلاجة الموتى ثلاثة وعشـرين عاماً ثم أُشـعله كمصباح لأجلك، هـذا يعني أننـي أتوقع منك أن تعطي قلبي حقه، لا أن تسبب له حمى القلق.

كونـي أحـب الكتابـة كثيـراً لا يعطيـك الحـق بـأن تجعل كل حياتـي بيـن الكلمـات وعلـى الـورق، أريد أن أمشـي معـك تحت المطر، أغني لك، أزور والدتك، وأكون نصيبك. فهل هذا كثير؟

عندما تسـرق قلبي من مخدعه وتحتفظ به فـي صدرك لتكون بقلبين أحدهما لـك والآخر لـك، عليـك أن تتذكر أن فراغـاً هائلاً في صدري مـن المفترض أن تمـلأه حباً. لقد كنتُ ومـا زلت امرأة

مجنونة، على استعداد تام لانتظارك لآخر العمر، حين ترى في عينيك بيتاً لها يثبت أن لا أحد سيأخذها منك. أحلامي بسيطة، أبسط من هذا الواقع المرير والصعب، خاتم بسيط في يدي يجعلني لك أمام العالم أجمع، حتى لو استغرقت بعدها كل العمر في بناء مستقبلك ومستقبلنا معاً.

حين أقول لك أنني أخاف الكوابيس التي تتخلى فيها عني، لا أريد أن تجيب «لن أتخلى عنكِ»، فهذا جواب ساذج، أنا أطالبك بأساس متين أستند عليه حين أقول هذا حبيبي. أريد أن أكون أمنيتك التي تسعى بكل جهدك لتحقيقها، مطرك الذي تريد الغرق فيه، أزهارك التي لا تذبل، ودعاءكَ المتصل دوماً بالسماء.

عليك أن تعي جيداً أن سعادتي معك وحدك في فقر الماديات ولن يعوضني عنها رجل آخر يمتلك الكثير من الماديات التي لا تعنيني حين يكون في الحب فقيراً. كل الرجال قادرون على ابتكار أبجدية جديدة من الكلام المعسول، وليس هذا ما أبتغيه منك، حين تكون حبيبي أريد شيئاً مميزاً يجعلك تختلف عن الآخرين.

قد أكون في ميزان النساء امرأة ساذجة -كما تدّعي الصديقات-، امرأة تتخلى عن رجل بمنصب، وثروة، وسيارة فخمة لأجل رجل لا يملك إلا المفتاح المناسب لقلبها.

أنا أحبك ولا أريد من العالم أي شيء سواك، فلا تتركني أبداً».

لكنك لم تفهم رسالتي، وأمعنت في الغياب، أسبوعان وعلاقتنا على المحك، اخترت أن تظل صامتاً، قتلني صمتك، أنت

لا تتحـدث إلـيّ، وإن تحدثت - رداً على رسـالتي طبعـاً، فأنت لم تبادر بالحديث أبداً - تخاطبني برسـمية مفرطة كمن يخاطب مديره في العمل، تسـأل عن أحوالـي متعجلاً ثـم تتعذر بأي شـيء لتنهي الحديث.

أتنفس الصعداء حيـن أتذكر أن هـذا الجحيم انتهـى، وأن كل شـيء بيننا عاد إلـى سـابق عهده وأفضـل. اسـتيقظت صباحـاً على رسـالتك، الجو ماطر في الخارج، فتحت باب الشرفة لأتمتع بمنظر المطر فسـمعت صوت فيـروز يَهب عليَّ من شـرفة يافـا، هل هناك صباح أجمل من هذا!؟

عزمـت علـى تنفيـذ مـا خططـت لـه منـذ مـدة، أن أزور يافا في أول يوم ماطـر، كان الشـارع في الخـارج هادئاً، مـن الرائع أن يصادف يوم إجازتـي، يوماً شـتوياً بامتياز، بعد أن تغيـر نظام عملي فصـرتُ أعمـل يـوم الجمعـة، وتحولـت إجازتي إلـى يـوم الأحد، الأولاد في المدارس، والأمهات منهمكات بأعمال المنزل، ولا أحد بجنوني ليخرج تحت المطر.

أديش كان في ناس

عالمفرق تنطر ناس

وتشتي الدني، ويحملوا شمسية

وأنا بأيام الصحو ما حدا نطرني

وصلـت منـزلَ يافـا، كان صـوت فيـروز عذبـاً ونقيـاً كالمطر، فتحـت البوابـة الخارجيـة «شـبه المغلقـة»، ومشـيت حتـى وصلـت

البوابة الداخلية. طرقت الباب أول مرة فلم تجب، خمنت أنها لم تسمع طرقة الباب بسبب صوت الأغنية، فطرقت مرة ثانية، ثم ثالثة فتوقف صوت فيروز. سمعت صوت خطواتها تقترب من الباب، فطرقت الباب مرة أخرى لكنها لم تفتح.

بقيت أقف هناك تحت المطر لساعة كاملة أو أكثر، نطقت اسمها، أعدته بصوت أعلى، ثم أعلى، لكن لا شيء إلا صوت المطر يجيب بقطراته التي تنساب بنعومة على زجاج النوافذ، وأوراق الشجر إلى أن تعانق ذرات التراب.

كنت متأكدة أنها تراقبني من خلال عدسة الباب، فقد لاحظت فور وصولي أن عدسة الباب كانت مضيئة ثم أعتمت فجأة بعد صوت الخطوات التي اقتربت من الباب. قلت لها أنني أعرف أنها تراقبني من خلف عدسة الباب لكنني رجوتها أن تفتح لي لنتحدث وجهاً لوجه. أنا لا أريد إلا أن أسلم عليها وأتمنى لها شتاء طيباً ودافئاً. وسأكون سعيدة جداً إن دعتني لفنجان قهوة أو خرجت معي لنتمشى قليلاً تحت المطر.

لكن الكلام كان يذهب عبثاً. فهي لا تُجيب ولا تكترث بي. حاولت استفزاز عواطفها قليلاً فقلت لها أنني إن بقيت واقفة تحت المطر سأمرض، وسأضطر للتغيب عن عملي فترة طويلة، ولا يوجد من يقوم بالعمل مكاني. لكن يبدو أنها لم تقتنع.

- لك شو عم تعملي عندك؟

استدرت لأتبع مصدر الصوت فوجدت الخالة سلمى تقف خلف البوابة الخارجية، تضع يدها على خدها وعلى وجهها

علامات الصدمة.

- شفتك من شباك المطبخ، أواعيكي غرقانين، روحي غيري بسرعة قبل ما تمرضي. وسيبك من هالمجنونة اللي جوا، ما بدها تفتحلك بلاش هي الخسرانة.

ذهبت سريعاً إلى الخالة سلمى ورجوتها أن تخفض صوتها قليلاً، فأنا لا أريد أن تسمع يافا كلام الخالة سلمى، فتزداد اصراراً على عزلتها ورفضها استقبالي. لكن الخالة سلمى ظلت تكرر الكلام ذاته من أن يافا متعجرفة، وأن «الجنة بدون ناس ما بتنداس»، وأنها لو كانت طيبة مثل جدتها أم أحمد لما سمحت لنفسها أن تدعني أقف كل هذا الوقت تحت المطر.

- قضت سنين من عمرها عند جدتها أم أحمد، مش معقول ما قدرت تتعلم منها كيف الواحد بستقبل ضيوفه. على شو شوفة هالحال كلنا بشر. إلا إذا شايفتنا مو قد المقام حتى تستقبلنا.

كي تصمت الخالة سلمى وتتوقف عن تهجمها الكلامي على يافا كان علي أن أعود إلى المنزل، وألغي مشروع الزيارة. دخلت البيت والماء العالق بملابسي يتساقط من كل حدب وصوب. بدلت ملابسي، وصنعت فنجاناً من القهوة، ثم بدأت أكتب لك رسالة جديدة.

- بالَك ضل شي فيروز ما حكيت عنه؟

- اسمكِ.

- ما بيلزم.

- مفروض.

- هو في أحلى من المطر؟

- أنتِ.

- بدي تمطر وإحنا سوا.

- ونضل نمشي نمشي نمشي.

- حتى لو تعبنا.

- لن نتعب.

- حتى لو مشينا العمر كله.

- ولأبعد.

شعرت بنغزة في قلبي. أفكر بكل الأشياء التي كان من الممكن أن نفعلها هذا الشتاء، فيقتلني الحنين إليك. كنت أعتقد أننا سنكون معاً، نمشي ساعات تحت المطر، نشرب القهوة، نجلس إلى جانب المدفأة، نتحدث عن أحلامنا، عن كوخ ريفي بين الأشجار في غابة هادئة، عن الحفلات الموسيقية التي نريد حضورها، الثلاثي جبران، نصير شمه، يروما (yiruma)، ياني، أندريه ريو، عن الأماكن الطبيعية الخلابة التي نريد زيارتها، عن الشعر، تكتب لي شعراً، وأقرأ لك ما كتبت فيكَ من دون أن أخشى أنك لن تفهمني.

أنت بعيد، بيننا مسافات كبيرة، تعيش شتاءكَ وحدك في الغربة، وأعيش الشتاء هنا في الوطن، في مدينتنا... لكن على الرغم من المسافات أثق بك، وأشعر أنك في قلبي، قريب جداً، أثق بقلبك وحبك، وأثق أن المسافات لن تضعف حبنا بل ستمنحه القوة والقدرة على الاستمرار.

لم أكـن يوماً امرأة بائسـة تحتـاج رجـلاً لتكتمل أيامهـا، كنت ممتلئة بالحياة، ومكتملة بالطموح والكتب والقهوة، كيف بترَ الحب أيامي فصارت لا تكتمل إلا بك؟

هوسـي بالتفاصيل لا حـد له، أريـد أن أعرف حالتـك في كل لحظة، ولهذا سألتك ماذا تفعل؟

- أشرب القهوة وأحبكِ.

من أين لك هذه الأبجدية المذهلة على الرغم من أنك لسـت كاتباً ولا شاعراً، كيف تستطيع أن تكون بهذا التألق؟ مرة سألتك:

- منذ متى تعرفني؟

- من مدة كافية جداً لأُحبكِ.

هـذه الإجابـات المختصـرة تحمل فـي طياتهـا من السـحر ما يكفي لأفقد عقلي وأغرق تماماً فيك، أثمل بحبك، تجعل من قلبي طفلاً يركض بين الضلوع يُحبك ولا يَتعب. حتـى حين كنتَ تتعب كنت أقول لك أن لدي كل اسـتعداد لأتقاسـم معك تعبـك، فتقول لي «أريد أن أحمله كله عنكِ». فشـعرت أنك هدية أرسـلتها السماء للاعتناء بي، في وقـت كنت أعتني فيه بكل مـن حولي من دون أن أستطيع الاعتناء بنفسي.

حدثتك عـن يافا وما حصـل اليـوم، وكيف وقفت ببـاب بيتها تحـت المطر مـن دون أن تأذن لـي بالدخـول، وعن الخالة سـلمى التـي صرخت فـي وجهـي وأمرتني بالعـودة إلـى المنـزل. فوبختَني بشـدة لأنني قد أمرض بس جنوني هذا. قلت لي لا ترهقي نفسـك بهذا الأمـر كثيراً واعتني بنفسـك جيـداً. لكن كلامك لن يغير شـيئاً

فأنا لن استسلم وسأظل أحاول حتى تسمح لي بزيارتها.

أنت، أمي، عائلتي، صديقاتي، الخالة سلمى، كلكم تعتقدون أن الأمر لا يستحق كل هذا العناء. وعلى العكس تماماً فأنا أظن أنه يستحق وأنني سأصل لما أريد عاجلاً أو آجلاً. فيافا ليست مجرد جارة عادية. بيتها، حديقتها، نوعية الموسيقى التي تسمعها، وحتى المكتبة الكبيرة التي لمحتها في الغرفة المجاورة لباب البيت، من خلال النافذة التي لم تكن مغلقة، أو مغطاة بالستائر. أنا أشعر أن هناك حكاية كبيرة جداً خلف عزلتها. هذه المرأة ليست امرأة عادية أنا واثقة من ذلك.

(18)

إنه الشتاء، وقد مر زمنٌ على المحاولة الأولى لزيارة يافا، المحاولة التي باءت بالفشل، سأعيد الكرة اليوم بما أن السماء كافأتنا بصباح ماطر.

تحدثت إليك قبل أن أذهب وأخبرتك بمخططي. وكالمعتاد حاولت إقناعي بالعدول عن هذه الفكرة والبقاء في المنزل. لكنني لم أرضخ لقولك وبقيت مصرة على الذهاب. فحاولت مراوغتي بحديثك عن السكرتيرة الجميلة التي أعدت لك القهوة هذا الصباح، وبنساء المنفى الجميلات. لم أشعر بالغيرة ليس لأنني أثق بك، وليس لأنني أثق بأنني كافية جداً لرجل مثلك. وليس لأنني أعرف أنني لست أجمل نساء الأرض التي تقف أمام مرآتها وتقول «يا مرآتي.. يا مرآتي»، وأعرف أن الذكاء الأنثوي الذي أتمتع به قادر على إبهار الرجل لوهلة، لكنه يعجز عن الاحتفاظ به لزمن طويل، فالغريزة والتعطش للجمال تفوق كل شيء. وأعرف أيضاً أن القرب يغلب الحب المشتت في المسافات، وأن امرأة قريبة ماكرة تستطيع أن تسحر الرجل بقربها فتسرقه من حبٍ بعيد.

لكن لأن لي في الحب مذهب لا أعدل عنه أبداً، إن رجلاً لا يصون حبنا في بعدي، ولا يجعلني أهم امرأة في حياته، تغار منها

كل نساء الأرض، لا أريده. لا أريده حتى وإن كانت حياتي معلقة به. فأنا على استعداد تام لاقتلاع قلبي والمضي قدماً من دون ذرة أسف. فالأسف يكون على رجل يستحق، واحد قدَّرني حق قدري.

قالت صديقتي ليال مرة أن لتناول الحب إتيكيت يشبه كثيراً إتيكيت تناول الطعام، كانت تنصح إحدى الفتيات وتقول لها: «إن ضبطت إحداهن تحدق بصحني سأتركه لها وأرحل». لم أكن بهذه الشدة مثل ليال، فأنا سأحارب كل نساء العالم لأجل رجل أحبه ما دمت أثق أنني أنثاه الوحيدة، لكن إن ضبطته هو يحدق بطبق آخر عندها سأتركه للأبد.

* * *

وقفت بباب البيت أحدق بمنزل يافا وأتأكد من أن الخالة سلمى لن تفسد مخططي هذه المرة، الشارع خال تمام، حتى الحاج أبو سليم يختبئ من المطر في دكانه، عصافير الدوري الرمادية تحلق تحت المطر الخفيف، محظوظة في حريتها، كم أتمنى لو أن الله يمنحني أجنحة أطير بها بعيداً إلى كل المدن الجميلة التي حلمت بزيارتها، وكل الطرقات التي وددت أن أسير فيها، والبحار التي أريد أن أراقب الغروب من شواطئها من دون أن أضطر لحمل أوراق ثبوتية، وجوازات سفر، وحقائب، أن أكون حرة لا يحدق في وجهي موظفو الأمن والمطارات، بلا انتظار ولا تأخر ولا وداع.

كيف يتجاهل أهل الحي هذا الصباح الشهي كرغيف خبز ساخن خرج من التنور للتو، ويقبعون خلف الجدران الأسمنتية

أمام شاشة التلفاز التي لا تعرض إلا البرامج السخيفة، والأغاني الساذجة، والأخبار المؤلمة إلا من رحم ربي؟

منذ صغري لا أثق بالمدن التي لا تمطر، ولا الأشخاص الذين يكرهون فيروز والمطر، هناك شيء مني معلق بالشتاء وفيروز يجعلني أقع في غرام الأيام الماطرة بكل تفاصيلها.

بيت يافا غارق في المطر والسكون، أشعر بالبرد يتسلل إلى أعماقي لكنني لا أكترث، أستجمع قبضتي وأحاول ضبط ارتجافها ثم أطرق الباب، قلبي يختبئ خلف قفصي الصدري كطائر مبلل وخائف، ابتسامتي وحماسي الطفولي بدأ يتلاشى أمام الباب المغلق والصمت، ينسحب كطفلٍ صغير يغلق الباب بهدوء في أثناء هربه سرّاً من البيت خوفاً من افتضاح أمره أمام أمه الغاضبة. يافا تعيد سيناريو الأسبوع الماضي وتتجاهلني، لكن هذه المرة لم يكن هناك موسيقى، ولا أسمع صوت خطواتها داخل المنزل كأنها اختفت هي الأخرى أو هربت.

تتسرب الخيبة واليأس إلى روحي بشكلٍ لم أعهده من قبل، هل أفرطت في اندفاعي نحو يافا؟ هل الخالة سلمى محقة في تأنيبي؟ هل كان عليَّ أن أسمع كلامهم وأصرف النظر عن هذه الحكاية؟

ملايين الأفكار تدور في رأسي في لحظات قليلة، أستعيد الحكاية من بدايتها، الرسائل التي كتبتها لها عبرت أمام عيني بأوراقها، وحبرها ومغلفاتها الورقية البيضاء، الأخبار المهمة في الصحف، حالة الطقس، اقتباساتي المفضلة من الكتب التي كنت أقرأها، الحكم الجميلة التي كنت أسمعها من أشخاص عاديين

جداً، المواقف الطريفة، والمصادفات التي أراها في خلال عملي، حكايات الأشخاص الذين أقابلهم، حبيبي بتفاصيله ورسائله، ما أحب فيه، ما يغضبني منه، الكلام الذي أود أن أقوله له فأتراجع في اللحظة الأخيرة. كل شيء. كنت أحدثها عن كل شيء كأنها صديقة مقربة. كنت أكتب لها كل مساء، وأطوي الرسالة ثم أغلق عليها المغلف الأبيض لأضعها في صندوق البريد صباحاً في أثناء توجهي للعمل. حتى هذه اللحظة لا أعرف لماذا كنت أكتب إليها. لماذا اخترتها هي تحديداً لأفرغ لها قلبي. وتساءلت وأنا أقف أمام الباب تحت المطر هل قرأت رسائلي، أم أنها ألقتها في سلة المهملات، وإن كانت قرأتها، هل شعرت بالملل وشتمتني ونعتتني بالسذاجة والغباء، لأنني أكتب لغريبة لا أعرف عنها الكثير، ولا تعرف عني إلا من خلال رسائلي؟

كنت أرتجف برداً، وشعرت بحاجة ماسة للبكاء، كان الصداع يقرع الطبول في رأسي بعنف. السعال يجرح رئتيّ، وحرارتي ترتفع تدريجياً. وصوت ما يهمس لي أنني فتاة سيئة وساذجة، وأنني لن أحصل دوماً على ما أريد، فالحياة ليست بهذا الكرم.

أدرت ظهري للباب وأنا أدرك أنني لن أعود إليه بعد اليوم، وأن النهاية هنا، أمام البوابة الحديدية البيضاء، وأن هذه هي الفقرة الأخيرة في الرواية التي أكتبها عن يافا. وعلى الرغم من أني أقنعت نفسي مراراً بأنني لن أندم على شيء في حياتي، إلا أنني شعرت بالندم على كل مرة طرقت فيها الباب، أو وضعت رسالة في صندوق البريد.

(19)

أمضيت الصباح في السرير، وعلى الرغم من حرارة جسدي المرتفعة، إلا أنني كنت أشعر بالبرد، أعصر قلبي كقطعة قماش ثم أنفضه ثلاث مرات لأخلصه مما علق به من ألم. تمر أمامي أطياف أصدقائي، عائلتي، الخالة سلمى، ينظرون إليّ بشفقة ثم يضحكون. تختفي الوجوه فلا أعود أرى إلا الأفواه، تتحدث، تكرر الكلام ذاته، تعيده بصوتٍ أعلى، وأعلى. يضحكون، وأنا أهرب منهم وأتوارى وراء غيمة كبيرة أجلس القرفصاء وأخبئ رأسي بين يدي، تكبر الأفواه أكثر، أرى الكلمات مكتوبة تخرج منها وتهجم علي، أنكمش أكثر وأبكي، تحملني الغيمة، ترتفع قليلاً فتحاول الكلمات والأفواه التسلق لوصولها فترتفع أكثر، ترتفع، تبتعد، ثم نطير.

أنظر إلي الأفواه في الأسفل، صغيرة، صغيرة جداً، تمد يدها للأعلى وتقفز في محاولة فاشلة لالتقاطي، لكنني بعيدة، أطير. انظر إليها مرة أخرى لأتأكد أنها لن تصل إلي. وعندما أتأكد من أنني صرت أبعد من أن تمسك بي ابتسم وأشعر بالأمان. ثم أنظر حولي فأراك ضخماً وكبيراً مثل الحكايات والأساطير، تحملني على كفك. كفك الغيمة.

استعدت تفاصيل الحلم فابتسمت على الرغم من المرض،

أنت معي فلماذا أخاف؟ أنت الأمـان، والملجأ الذي يحميني تحت سـقفه القوي. أنـت العلاقـة المتينـة الوحيدة التـي تربطنـي بالحياة. لم توبخني هذه المرة لوقوفي سـاعات تحت المطـر، مع أني كنت انتظر توبيخـك. كنت حنونـاً ودافئـاً. المرض شـفع لي هـذه المرة فصرتَ غيمة لأجلي، ناعماً وطيباً كحضـن أم. كنتَ تحاول تهدئتي والتخفيف مـن خيبتي بعـد ما حصـل أمام منـزل يافـا. اخترت من الكلمات ألطفها وأجملها لوصفي ومدح شجاعتي وإصراري. وعلى الرغم من أنـك كنتَ تحـاول ردعـي، وتنعتني بالجنـون كلما جئت على ذكر سـيرة يافا. إلا أنك عدلـت عن كل ما كنـت تقول. كنت أعـرف أن تصرفك نابـع من الحب وليس الشـفقة، فأنـت تؤمن بي وبقضاياي حتى لو لم تكن تُظهر هذا.

يـا الله مـا أعـذب قربـك حيـن تعتني بـي فـي مرضـي، فتهتم بتفاصيلي الصغيرة، موعد تناولي الطعام والدواء، نومي واستيقاظي، مـاذا أكلـت اليـوم، وتفاصيـل غيـر مهمـة تصيـر أجمـل لمجـرد سـؤالك عنها. هل كان علـي أن أمرض لكي أحصـل على كل هذا الاهتمام؟ كنـت أعرف أنك لم تسـتقر بعد فـي الغربـة وأن عملك مكثف ومرهِق لكنني كنـت متطلبة جداً وأطمـع بالمزيد من القرب والاهتمـام. كنت أخشـى أن تخطفـك الغربـة، والعمل، والانشـغال فتنساني، أو تتعثر بامرأة أخرى أكثر قرباً مني. كنت أحبك إلى ذلك الحد الذي يجعلني أملـك القدرة على التخلي عن أي شـيء، وكل شيء لأكون معك.

عندمـا أخبرتنـي أن موعد سـفرك قـد اقتـرب وأنك سـتذهب

لتحجز تذكرة الطائرة، شعرت أن السفر صار حقيقاً، بعد أن أقنعت ذاتي أنه وهم. أردت أن أقول لك فلنهرب يا حبيبي قبل أن تقبض علينا يد الفراق. اسرقني الآن ولا تُعدني إلى هذا العالم البشع.أردت أن أصرخ وأقول: خذوا الأرض بما فيها، بكل قبحها وقسوتها، واتركوا لي الحب والمطر. فهذا العالم شرس، قلبه من حجر، والحب مطر. ليحترق إذن بكل ما فيه ويبقى الحب للأبد. لكنني اكتفيت بأن أقول لك «دير بالك على حالك وما تنساني».

حبك جعلني أمارس أمومتي المبكرة، أحبك، أخاف عليك، أعتني بك، أهتم بأدق تفاصيلك كأنك طفلي الأول الذي أنجبته من رحم قلبي. أنت رجل يعرف كيف يلون ضحكتي حين أمرض، ويرجم الحزنَ بالحجارة اذا ما اقترب من قلبي. كنت مندهشة وأنت تسألني الكثير من الأسئلة لتطمئن على أحوالي، فقاطعت حديثك وقلت:

- حبيبي.

- عيونه؟

- ما أروعك.

- لَكْ شو اللي «ما أروعك؟»، إذا ما اهتميت فيكي بمين بدي أهتم؟

يومها شعرت أنني سيدة نساء العالمين، وأن امرأة في العالم لم تحظَ بهذا الترف، والحب الذي أحظى به معك. انظر إلى صباحات قديمة لم أعرفك فيها، لم أبدأها بك، لم أسمع فيها

صوتك، فأدرك كم كان الصباح فقيراً قبل حبك. على الرغم من أنني لا أغار كثيراً، إلا أنني حين تتحدث أمامي عن امرأة أخرى، أشعر أنني تحولت لعجوز شريرة تحمل في سلة القش تفاحاً مسموماً، توزعه على النساء المحيطات بك، وحبيباتك السابقات، وأشتهي أن أنظف مسدسي، ثم أحشوه بالبارود وأقتل كل امرأة اقتربت منك.

* * *

كان المرض شديداً وأقعدني طريحة الفراش أسبوعاً كاملاً، لم أذهب فيه إلى العمل، ولم أرَ إلا وجه أمي، وشقيقتي تعتنيان بي، تتناوبان على تغير الكمادات الباردة، وإعطائي جرعة الدواء اليومية، وتقدمان لي الطعام. والطبيب الذي زارنا مرتين في خلال الأسبوع. وأما الخالة سلمى فكانت تأتي كل يوم تطمئن علي صباحاً في غياب أمي وشقيقتي.

كنت أرى في عينيها شفقة أكرهها. وفي اليوم الأول حين رأت وضعي الصحي السَّيء بدأت تتحدث بنشوة المنتصر عما حدث لي، وكيف أنني ما كان يجب أن أتدخل منذ البداية بحكاية يافا، لأن من اعتزل البشر عشرة أعوام لن يغير رأيه ويفتح الباب إن وقفت أمامه سنة كاملة تحت المطر وليس ساعات فحسب.

لم أمتلك أدنى رغبة بمجادلتها بقناعاتي، تركتها تتحدث كأن الأمر لا يعنيني، ومن بين حديثها قالت أمراً مهماً لا أدري كيف فاتها أن تخبرني به حين سألتها عن يافا.

- اللي بيحط العقل بالكف إنه المثقفين واللي عاملين حالهم

نخبة المجتمع ما بيعرفوا يتصرفوا، بس شاطرين يكتبوا بالجرايد ويألفوا كتب يتفلسفوا فيها علينا، وعند الواقع بتلاقي الواحد فيهم ما بيفهم، ولا بيعرف كيف يتعامل مع البشر ويحكي معهم، إذا هاي الكاتبة الفهمانة والمثقفة هيك، ما يعتب الواحد على الناس الجاهلين.

- كاتبة؟ يافا كاتبة؟

- ليش أنا ما حكيتلك؟

- لا، شو القصة؟

- يافا كانت تكتب بالجريدة أيام زمان، كانت كل الحارة تشتري جريدة الوطن عشان تقرأ شو يافا كتبت بزاويتها اليومية. كانت تكتب مقالات تيجي مثل الملح عالجرح، في السياسة والوطن والاجتماع والعاطفة. كانت مقالتها من أفضل المقالات بالجريدة. كنت أقرأ لعجايز الحارة اللي ما بيعرفوا يقرأوا. تيجي الصبح عالحارة تلاقي الكل ماسك الجريدة. وبعيون الناس لمعة فخر فيها وباللي بتعمله عشان الوطن والناس، أمي الله يرحمها كانت تضل تقول «الله يحيّ البطن اللي حملها». مرة قرأت إنها بتألف قصص وروايات، وإلها كتب بالمكتبات بس الصراحة أنا ما قرأتهم ولا مرة. أنت بتقرئي كثير أكيد تكوني سمعتي فيها، أو قرأتي شي من كتاباتها.

كان الحديث الذي سمعته من الخالة سلمى مدهشاً ومفاجئاً، كيف لم تخبرني من قبل أن يافا جارتنا التي تقطن في البيت المقابل هي ذاتها الكاتبة الفلسطينية المشهورة. لقد قرأت لها

مجموعة قصصية، ورواية، وكانتا مذهلتين وتفوقان الوصف. أذكر أنني حين قرأت لها أول مرة بحثت عنها على الشبكة العنكبوتية، لأنني أحب أن أقرأ عن الكاتب وشخصيته وحياته بعد أن أقرأ أحد أعماله. يومها لم أجد لها إلا القليل من الصور - أغلبها مع غيرها من الأدباء المشهورين -. وقرأت مقالات عن اعتزالها الكتابة وهجرتها إلى لندن بعد استشهاد شقيقها الوحيد. هذا بالإضافة إلى الكثير من الشائعات التي تخص اعتزالها وأسبابه. وأن مسيرتها الأدبية قبل الاعتزال أثمرت كتابين لا غير.

عندما أخبرتك بهذا، وأعربت عن أسفي وخجلي من نفسي الذي تضاعف حين عرفت حقيقة يافا، شعرت أن الخبر فاجأك أيضاً، فالدنيا لا يعقل أن تكون صغيرة إلى هذا الحد بحيث تكون يافا الكاتبة هي ذاتها جارتي الغامضة. قلت لي أن أبرق لها رسالة أخيرة حين أشفى وتتحسن حالتي الصحية، أعتذر فيها إن كان هذا سيريحني من العبء الجاثم على صدري.

كانت فكرتك مقنعة جداً، ولهذا قررت تنفيذها فور شفائي. بيني وبين نفسي كنت أفكر أنه من الممكن أن يافا اعتقدت أنني أحاول التلصص على حياتها، والتطفل عليها لأنني أعمل في الصحافة. أغضبتني هذه الفكرة. فمحاولتي لقاءها كانت لهدف شخصي وليس للعمل. ولذا وضعت في دماغي مخططاً لما سأكتبه إليها. عليها أن تعلم أنني لم أعرف أنها كاتبة إلا مؤخراً، وأنني لن أعيد الكرة أبداً، وسأبتعد عنها وأتركها لوحدتها، مع أنني أشك في هذا، فقد كانت الموسيقى وفيروز شيئا مشتركا بيننا، مما أشعل

فضولي لاستكشاف هذه الجارة، كيف الآن وقد علمت ما علمت عنها..؟

* * *

هذا الأسبوع كان طويلاً ومملاً، لم أكن أفعل شيئاً سوى الاستلقاء في السرير، وقراءة الكتب، ومحادثتك. كنتَ أقرب إليّ مني. أما الخالة سلمى فقد كانت تمضي ساعات الصباح بالثرثرة التي لا تنتهي، تشرب معي فنجان قهوة تعده لنا ثم ترحل لتكمل أعمال بيتها. مرة قررت أن تحكي لي عن قصتها مع التدخين لأكتب عنها، فقد تساعد تجربتها غيرها من المدخنين على الاقلاع، خاصة بعد أن ارتفعت أسعار السجائر إلى أرقام غير معقولة، وتفشت الأمراض بين المدخنين، شعرت يومها أن بداخل الخالة سلمى كاتبة صغيرة مقيدة، تنتظر لحظة إطلاق سراحها، لتنفجر بوحاً وحكمة، فهذه ليست المرة الأولى التي تحكي لي فيها الحكايات لأكتب. تسرب بين كلماتها حكمة عميقة يبدو أنها اكتسبتها من تجارب الحياة. قلت لها مرة «أنت مشروع كاتبة. لماذا لا تكتبين بنفسك؟» قالت يومها أن الكتابة تحتاج إلى جرأة لا تمتلكها، ومسؤولية لن تستطع وضعها على أكتافها. الكتابة بالنسبة لها مخاطرة كبرى، سوف تجعلها تجني كل سخط هذا العالم. تقول أنها لو كتبت لن تكتب الحكمة، بل سوف تشتم هذا العالم النتن، تقاليده، وعادته الغبية التي تقيد حرياتنا، ستشتم زوجها الذي منعها من مزاولة المهنة التي تحب، لتبقى في المطبخ بين رائحة البصل والثوم، وسائل تنظيف الأرضيات. سوف تبصق في

وجه جسدها الذي تخلى عنها حين ضعف، فجعلها تخسر متعتها الوحيدة في الانتقام من الحياة ألا وهي التدخين.

- خلي اللي بالقلب بالقلب وأكتبي أنت وغيري العالم.

الخالة سلمى تدخن منذ ثلاثين عاماً، ثلاثين عاماً وعلبة السجائر أفضل أصدقائها، تستهلك كميات هائلة في اليوم الواحد، كأنها تحرق العالم بين شفتيها فتنتقم منه. قبل أربعة شهور ولأسباب صحية خذلتها حنجرتها، فتركت التدخين بعد عملية جراحية في الحنجرة، عندما قال لها الطبيب بعد العملية أنها لن تدخن بعد اليوم، اتسعت حدقتاها بشكل مرعب لكنها لم تنبس بحرف واحد. ظلت لمدة أسبوعين أو ثلاثة لا تتكلم مع أنها تستطيع. كانت تكتب على يدها ما تضطر لقوله، وزوجها يرجوها أن تنطق، أن تشتمه إن أرادت، أن تصرخ في وجهه، أن توبخه وتضربه. لكنها ظلت واجمة تحدق في الفراغ، وتكتب على ساعدها. تحولت إلى امرأة شديدة الانفعال والعصبية، أقل الأشياء تثير غضبها. تنظر إلى زوجها وهو يدخن أمام عينيها فيطير عقلها من مكانه. يمد يده إليها بسيجارة مشتعلة لكنها ترفض وتغادر الغرفة فوراً. في الشهرين الأولين كانت الخالة سلمى تحمل كل غضب الدنيا، لم يجرؤ أبناؤها على الحديث إليها لكي لا تشتعل أمامهم وتنفجر غيظاً. قالت لي مرة أنها شعرت بذلك الإحساس الذي يشعر به مدمنو المخدرات حين يريدون جرعة من المخدر. رأسها يشتعل. تريد أن تشد شعرها، أن تمزق ملابسها مقابل سيجارة واحدة فقط. لكن يدها لم تمتد لعلبة السجائر أبداً.

استيقظت مرة بعد منتصف الليل، فقامت تتفقد أبواب المنزل إن كانت مغلقة بإحكام، وفي أثناء عودتها إلى غرفة نومها لمحت علبة السجائر والولاعة على طاولة الصالة، فطار قلبها فرحاً. تلفتت حولها لتتأكد أن زوجها وأولادها لا يرونها. وبينما كانت تمتد أناملها بخفة إلى علبة السجائر، تذكرت أنها كبرت، وأن أمها لن تضربها إن أشعلت السيجار، لن تمسك ساعديها وتعضهما فتترك مكان أسنانها بقعاً زرقاء على جسدها الغض الذي لم يبلغ بعد الخامسة عشر من العمر. لن تشدها من شعرها وتركلها. تذكرت أن لا أحد يمنعها من التدخين سواها. فأدركت أن الأمر أقسى.

ليلتها بعد أن عادت إلى السرير حلمت أنها تجلس في مكتب الطبيب تدخن السيجار تلو الآخر، تضحك بصوتٍ عال وتقول له وهي ترتشف القهوة من فنجانها أن القهوة لا تمتلك نكهة بدون سيجار فاخر. كان الحلم ذاته يتكرر في منامها كثيراً. فتستيقظ والعرق يتسرب من جسدها، فتجلس على حافة السرير وتبكي.

عندما كانت طفلة كانت تهرب برفقة ابن عمها إلى باحة المنزل الخلفية، يمسكون أعواد الملوخية الجافة، يشعلونها مثل سيجار ويبدأون متعتهم الصغيرة، لعبتهم التي ينفثون فيها الدخان ليتصاعد عالياً إلى السماء. تقول «بحب الدخان، بحبه فوق ما تتخيلي». لم يكن والدها من المدخنين، ولذلك لم تكن تسرق السجائر من علبته كما يفعل المدخنون في بداياتهم. كانت تصنع سيجارها الخاص من أعواد الشجر أو الورق، وحين كبرت قليلاً كانت تشتريه من مصروف جيبها. أما انتصارها الكبير فقد كان حين

بلغت الثامنة عشرة، يوم قال لها والدها أنه لن يمنعها من التدخين، ولن يسمح لأمها أن تضربها بشرط أن تدخن أمام عينيه، لا من وراء ظهره.

أخوها الأصغر توفي قبل عامين بسرطان الرئة. كان مدخنا من الدرجة الأولى، ومدمناً إلى أبعد حد. تقول أنهم كانوا مرة يزورون بيت العائلة في الريف فانتهت سجائره قبل أن يعود إلى المدينة، وأقرب دكان يبعد عنهم أكثر من كيلومتر، أرسل ابنه يومها إلى الدكان ليحضر السجائر، وبعد انطلاق الولد بخمس دقائق لحق به سيراً على الأقدام، لأنه لم يستطع الجلوس وإمضاء الوقت في الانتظار.

الخالة سلمى لم تدخن منذ أربعة أشهر، وتقول أنها باتت تشعر بالضيق من رائحة الدخان وتسعى لجعل زوجها يتركه أيضاً. تقول لي أنه يمكنها في أي لحظة أن تتمرد على نصائح الطبيب لكنها لن تفعل. لا أريد أن أسمح لسيجار لعين أن يحكم قبضته على عداد حياتي.

- سأعيش لأحكي لأحفادي.

(20)

إنه الأحد مرة أخرى، من المفترض أن يكون هذا اليوم عطلة، لكن وبعد أسبوع من المرض عليّ أن أتوجه إلى العمل في محاولة لتعويض فترة تغيبي في إجازة مرضية. قررت أن أذهب بالمواصلات العامة لأنني كنت وما زلت أخشى قيادة السيارة في الأيام الماطرة. الشارع مبلل بالمطر الذي لم يتوقف طيلة ساعات الفجر. السماء ملبدة بالغيوم لكنها لا تمطر. أتناول حقيبتي وأخرج من المنزل سريعاً لأصل الحافلة قبل أن تفتح السماء أبوابها مرة أخرى، فأصاب بالأنفلونزا والحمى من جديد.

يافا تفتح نافذتها وتطل منها، فيهرب صوت فيروز من بيتها إلى الشارع، أتجنب نظراتها المصوبة نحوي، وأحث الخطى نحو موقف الحافلات الذي يبعد مسيرة ربع ساعة عن بيتنا. وددت أن أقف أمامها وأقول صباح الخير يا سيدة المطر والحنين، لكنني أحكمت القبضة على جنوني ومضيت في سبيلي.

- كيف أصبحتِ؟

- أصبحت أحبكَ أكثر.

رغبتي بلقائك في أقصى درجاتها هذا الصباح، المطر يزيد

من سطوة الحنين على القلب الهش. أردت أن أبكي وأنا أراقب الوجوه التي تمر بي، العشاق يتبادلون النظر خلسة من خلف خيوط المطر، والأكثر جرأة يحتضنون أيدي بعضهم في مشهد دافئ. أردت أن أخطفك من الغربة لتكون معي هذا الصباح ونمضي اليوم سوياً. نمشي إلى حتفنا، ولا نتعب.

- يا ريتِك هون وتيجي تمشي معي. هيك ما في شي ببالنا. ما نحكي شي مفيد. نحكي كل السخافات اللي بالدنيا. بس حسبي أننا نسير.

- هاد حلمي.

- وهاد وعدي إلك.

لو أنني أغادر الحافلة هذه اللحظة فأراك أمامي لنحقق هذا الحلم الصغير الذي لن يعرقل مسير العالم، ولن يجعل من الأطفال أيتاماً ولا جوعى، لن يدمر البيوت أو يشرد أهلها، لن يقصف مدرسة، أو ملعب كرة قدم، ولن يخطف من يد طفل رغيف خبز. لماذا تقف الحياة في وجه أحلامنا البسيطة بينما تفسح الطريق للحروب والدمار والقتل، لماذا تغلق الحدود أبوابها فلا تعيدك إليّ، بينما تظل مفتوحة للدبابات والأسلحة. لماذا اختارتك الغربة تحديداً. لماذا أرى كل من لا تعنيني وجوههم، ولا أملك أن أتأمل ملامح وجهك.

قال لي زميل في العمل «أدعو الله أن يجعل هذا اليوم أطول لنستطيع إنهاء كل هذا العمل»، هل كانت ستكون أيامي معك أطول لو دعوت الله أن يزيد في عمر الدقائق؟ هل ستمنحنا الحياة

شتاء آخر نكون فيه أقرب؟

أحاديث كثيرة حشوتها في قلبي لأقولها لك حين نلتقي، حكايات كثيرة وعدتني أن تخبرني بها فأجلنا موعدها، فمتى سيأتي هذا اللقاء الذي علقنا عليه كل آمالنا؟

* * *

من الجيد أنني لم آخذ أية إجازة من قبل، وأنني متفانية جداً في تأدية عملي على أكمل وجه، وإلا كنت سأجني سخط مدير القناة بسبب الأيام التي تغيبت فيها عن العمل في خلال فترة مرضي. حين زرت مكتبه هذا الصباح كان بشوشاً، وأبدى سروره بعودتي إلى العمل لأن لا أحد يستطيع القيام بعملي كما أقوم به. قلت له أنني سأبذل قصارى جهدي لتعويض الأيام الماضية. وشكرته على باقة الزهور التي أرسلها إلى منزلي منذ أيام.

سمعت شائعات من بعض الزملاء حول فكرة ترقيتي ليكون لي برنامج خاص على القناة أُعدُّه وأقدمه للمشاهدين. كانت الفكرة جميلة ومربكة في آن. فمنذ طفولتي بعد أن أحدق في شاشة التلفاز لساعات، أركض نحو خزانتي وأختار أجمل فساتيني، ثم ارتدي حذاء أمي ذا الكعب العالي، أسرق من غرفتها قلم أحمر الشفاه، وألون به شفتيّ، ثم أجلس في غرفة الضيوف على الكنبة المريحة، أضع ساقاً فوق الأخرى، أقرب فرشاة الشعر من وجهي كأنها مايكروفون، أنظر إلى الورقة الفارغة في يدي، وأتخيل أنها مليئة بالكلام، ثم أبدأ بتكرار ما سمعته على التلفاز. فتصرخ أمي بي من المطبخ وتأمرني بإكمال واجباتي المدرسية. أمي التي

قاطعتني أسبوعين كاملين بعد صدور نتائج الثانوية العامة، ولم تحدثني لأنها ترفض فكرة انخراطي في مجال الصحافة والإعلام. أمي التي ما زالت حتى الآن تخشى علي من هذه المهنة، تخشى علي حين أغطي المواجهات بين الشبان وقوات الاحتلال، تخشى علي حتى من تغطية الأخبار العادية. أنا أحلم ببرنامج خاص بي، يدخل قلب كل مشاهد. برنامج ضخم كبرنامج أوبرا وينفري، يترك أثراً طيباً في هذا العالم، ويحل الكثير من المشكلات. لكن الشائعات تظل شائعات حتى نرى الورقة الموقعة من مدير القناة والقائمين عليها.

العمل مرهق، تركض والوقت يركض إلى جانبك، تسابقه فيسبقك، وينتهي اليوم قبل أن تنهي كل ما هو مطلوب منك. هناك كمية لا تنتهي من البؤس في هذا العالم، والبؤس الحقيقي أن ترى كل هذا ولا تستطيع أن تغير فيه شيئاً. أن تقف عاجزاً. كل ما تفعله هو نقل الوجع من مكان حدوثه إلى الشاشة، ليدخل بيوت كل البشر علّه يحرك فيهم شيئاً.

تأخر الوقت كثيراً، ستقلق أمي إن لم أعد إلى البيت الآن. ولهذا قررت أن أعود إلى المنزل وأكمل ما تبقى من العمل هناك.

السيدة التي تجلس إلى جواري في الحافلة تنشغل تارة بعد النقود في محفظتها، وتارة أخرى بجمع حبات الجوافا التي اخترقت الكيس، وتناثرت في الحافلة، وتكرر العبارة ذاتها طيلة الطريق «أغلبك أعطيني الحبات اللي وقعوا تحت الكرسي، كيلو الجوافا بعشرة شيكل اليوم». والشابة في المقعد الأمامي تخرج

المـرآة الصغيـرة مـن حقيبتها تحـدق فيها خمـس دقائق ثـم تعيدها إلى الحقيبـة، وتخرج هاتفهـا النقال وتحـدِّث أحدهم حتـى وصلنا المحطة.

عملي في الصحافة والإعلام زادنـي تعلقاً بفكرة تأمل الوجوه، أجـد متعة غريبـة في فـك شـيفرات البشـر، والتكهن بما يـدور في رؤوسـهم، وقلوبهـم مـن همـوم وحكايات. نصـف حكايات البشـر تطفو علـى وجوههـم، والنصـف الآخر تقـرأه مـن طريقـة تعاملهم مع الحياة. أسـتطيع أن أُألف كتابـاً كاملاً من تأملاتـي للآخرين في الشوارع، في الحافلة، في اجتماعات العمل، الأفراح وبيوت العزاء.

حين وصلت إلـى المنزل كانـت القريـة تغرق في ليل أسـود، أضواء الشـوارع لا تسـتطيع إزاحة هذا السـتار المظلـم الذي يحيط بالمنازل والشجر. لا صوت سوى صوت الريح، غاضب وصاخب. القرية شـبه فارغة، قد يكون المطر هو السـبب. النوافـذ مضاءة. أما يافا، مـا زالت تقف علـى النافذة كما فـي الصباح كأنهـا لـم تتحرك من هناك أبداً. كما لو أن الزمـن توقف حين فتحت النافذة، وجلس عاجزاً أمام صمتها. تحدق في اللاشـيء. ما سـر تصرفها هذا؟ هل تشعر بالوحدة؟ اليأس؟ الملل ربما!

لماذا أغلقت قلبها بهذا الشـكل؟ لماذا هجرت الكتابة؟ أسـئلة كثيرة أتمنـى لو أنّي أجـد لها جوابـاً لكنني لـن أطرحهـا علناً. لأن صمتها وتجاهلها باتا خناجر توجع قلبي.

امرأة ليسـت ككل النسـاء، على قدر عـالٍ من العلـم والثقافة، امرأة كرسـت جزءاً كبيـراً من حياتها لأجـل الوطن. تنعـزل وحدها

في بيت هادئ وقرية هادئة. امرأة عاشت في وسط صخب المدينة وصخب الصحف والأخبار. من الذي أطفأ الأمل في قلبها. كيف ماتت آخر سنبلة قمح وآخر زهرة ياسمين؟

أرسلت لك رسالة فور وصولي المنزل، ثم انهمكت في إكمال ما تبقى من عمل، سهرت حتى ساعة متأخرة. الليل بارد. باب الشرفة مغلق ولا أجرؤ على فتحه حتى لا أغرق في دوامة يافا. مزاجي مضطرب، لا أرغب في الحديث إلى أحد، لا أريد الاحتكاك بصوت الموسيقى، لا أريد الكتابة ولا القراءة، أريد أن أقلد يافا وأحدق في الفراغ.

مضى الوقت سريعاً ولم أدرك إلا في وقت متأخر أن الساعة تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل، وأنك لم تظهر ولم تجب على رسالتي. كنت متعبة إلى ذلك الحد الذي يجعلني لا أريد أن أقلق على شيء، فلماذا تجعلني أقلق عليك؟

(21)

«صباح ومسا

شي ما بينتسى

تركت الحب وأخدت الأسى».

كنت أعتقد أن الحب أكبر من كل شيء، من عمرنا القصير، ومشاكلنا الصغيرة، من خلافاتنا، من الساعتين في فرق التوقيت ما بين مدينتين، من يدك التي غادرت قبل أن تلوح لي، من فنجان القهوة الذي وعدتني به ولم أره حتى الآن. من المرات التي بكيت فيها لأنك لم تمنحني اهتماماً كافياً على قدر حبي لك. من رسائلي التي لم تجب عليها فظلت في هاتفك تبكي طول الهجر. من الليالي التي سهرت فيها لأجلك فيما أنت نائم، أو منشغل بأصدقائك، وربما عملك. من عقلك وبرودك الذي كنت تقابل به لهفتي وجنوني.

كنت أظن أن الحب طاقة هائلة تتخطى ما يعترض طريقها. إعصار لا يوقفه شيء وأن كل خلاف أصغر من الحب، على الحب أن ينتصر عليه.

كنت أظن أن الفراق أثم كبير أمام حب عظيم عشنا تفاصيله

لحظة بلحظة. كارثة تحتاج أسباباً ضخمة لتحدث، انفجارٌ كوني يدمر كل التفاصيل الأنيقة التي عطرناها بماء الورد والمطر. كنت أظن أن لعنة الفراق عليها أن تساوي الحب، أو تفوقه لتسبب شرخاً عميقاً في العلاقة التي جمعت اثنين في قلب واحد.

لطالما تخيلت الحب فارساً نبيلا، يحارب قطاع الطرق، اللصوص، وأشرار الغابة، وينتصر دائماً. وأننا وإن آلت كل الحكايات للفشل سننجح لنغير التاريخ الأسود للقصص المأساوية.

أرتب أفلاما، وكتباً اقتنيتها مؤخراً لنشاهدها، ونقرأها سوياً، صندوق زهر الياسمين الذي كنت أجمعه لأجلك وتعود كل زهرة فيه إلى حكاية ومكان، أحذف من هاتفي كل المعزوفات الموسيقية التي أردت أن أسمعها معك، كل صور الأماكن الجميلة التي خططت وحلمت بزيارتها ذات حلم برفقتك. كل المقاطع المذهلة من رسائلنا التي كنت أنتقيها بعناية، وأحتفظ بها لأقرأها على قلبي الذي أتعبته غربتك بين حين وآخر. ثم أبكي.

أبكي لأن صديقي كان محقاً حين قال لي أن هناك ما هو أهم من الحب، عقبات لا يمكن تجاوزها، وفراق لا يمتلك أسباباً مقنعة، لكنه يحصل ببساطة هكذا.

لم أصدقه يومها، لم أقتنع بأية كلمة مما قال، كان الحب يضع غشاوته على عيني وقلبي فلم أرَ إلا نهاية وردية لحكايتنا.

- الحب الكبير ينتصر.

يهزم كل مشكلة مهما بدا حجمها، وإن قدر الله أن ينتهي

الحب لسبب ما. من المفترض أن يكون هذا السبب أقوى من الحب ليهزمه. فالحصى الصغيرة لا توقف مجرى النهر.

كنت أؤمن بالنهايات الجميلة، وأملك من الأمل والتحدي ما يسع هذا العالم بأكمله، كنت أحلم بعمر كامل أقضيه معك. بأيام أستيقظ فيها على صوتك. وأنام وأنا أتأمل تفاصيل وجهك الطفولي الحالم.

كنت أظن أننا استثناء، وأن الفراق حين يرى تشبثي بك سوف يتركك لي خشية انكسار قلبي الهش. كنت أظن أنني طيبة وصالحة ولذلك سيكافئني الله ببقائك إلى جانبي.

- بتعرفي إنه الحب مثل بحر حيفا؟

- شو وجه الشبه؟

- ههههه، مش أي حد بدخل فيه بعرف يطلع، حتى لو كانوا بعرفوا يسبحوا مزبوط.

ابتسمت في وجه صديقتي بمكر في وقت كنت أظن فيه أنني أجيد السباحة، لكنني اليوم أغرق في ظلمات الفراق، ولا يد بيضاء تمتد لتنتشلني من هذا الحزن الذي أوجع قلبي.

في خلال لحظات مر شريط حياتي كاملاً أمام عيني، وكمشاهد سريع التأثر انفجرت بالبكاء، بكيت كل الخيبات التي أوجعتني، وكل الأصدقاء الذين تخلوا عني، بكيت موت جدي، ووفاة صديقتي بمرض السرطان، بكيت حتى الحوادث الصغيرة، كجرح في الرأس، أو القدم أيام طفولتي. بكيت سفر الأصدقاء وغربتهم. بكيت كل دقيقة انتظرتك فيها. بكيت النكبة والنكسة

وكل الحروب التي مرت على بلادنا، بكيت كل شيء حتى أصابني الجفاف، وصرت ورقة خريفية صفراء شاحبة.

أعدت قراءة رسـالتك ألف مرة، ألف مرة يا الله ولم أجد فيها سـبباً مقنعاً لنتوقـف في هـذه المحطة ليركـب كل واحد منا قطاراً يأخذه إلى مدينة تبعد مسـافة غياب عن الأخرى. لماذا لم نتشاجر، لماذا لـم ترتكب معـي إثمـاً كالخيانـة لأكرهك فيصيـر فراقنـا أمراً عادياً. لماذا لم تشـتمني وتخبرني بأنك كنت تخدعني طيلة الوقت، وأنك لم تحبنـي حقاً. لماذا قلـت أن الزمن لو عاد بـك إلى الوراء ألف مرة سـتحبني من جديد؟ لكنك لـن تخبرني بأمـر هذا الحب. لماذا فقدتُ صوتي وأنت تقول أن علينا أن نفترق؟ لماذا لم أصرخ يومها وأمنعك من الرحيل؟

كل الكلام انحشـر في جوفي، فقدت كل أبجديتي، لم أستطع أن أقـول لك كـم خذلتني. وكم من الأشـياء انكسـرت فـي روحي بقرارك هذا. كانـت الصدمة أكبر من أن أحتمـل وقعها. لم أعاتبك، ولن أفعل يومـاً، لأننـي أعـرف أن كل كلام الدنيا لن يغيـر قرارك، وكل بكاء الدنيا لـن يعيدك. وأن غيابـك طيلة الأيـام الماضية دليل قاطع على أنك فكرت كثيراً قبل أن تصارحني بما في قلبك.

كنت أخشـى على قلبي من طعنـة تصيب كبريـاءه كما أصابت حبه. ولهـذا تركتك تمضـي مُخلفـاً وراءك على عتبة بابـي ذكريات حكايتنا لأكتبهـا يوماً ما. أغمضت عيني قليـلاً فرأيتك برفقة أخرى، تحدثها عن حبـي لك، وجنونـي بك. عـن لهفتي عليـك واهتمامي بك. وفكرتُ للحظة. من سـيعتني بكَ في غيابي؟ هل سـتجد امرأة

أخرى تسمعك كما كنت أفعل وتفهمك قبل أن تتحدث؟ هل ستنساني سريعاً، أم أنك ستتذكرني بين حين وآخر فيقهرك غيابي؟

* * *

شعرت أن القوقعة الكبيرة انغلقت عليّ تماماً. وأن قلبي انقبض وانكمش على نفسه كقطة وقعت في بركة باردة. أردت كتفاً دافئاً أبكي عليه.

لدي الكثير من الأصدقاء، من كل الأعمار، الجنسيات، في كل بلد لي وطن، وأصدقاء طيبين. لكن في هذه اللحظة تحديداً شعرت أنني وحيدة وأنني أسير في صحراء واسعة وحدي. أشعر بالبرد على الرغم من أن حرارة رمالها تلسع قدميّ العاريتين.

بيوت تظهر وتختفي في مخيلتي، ما أن أصل أحد الأبواب وأمد يدي لأطرقه يختفي. فتاة صغيرة تطل علي من نافذة الطابق العلوي، تمد لي لسانها بسخرية ثم تتلاشى كالضباب. عجوز تعتني بحديقتها وما أن أقترب منها تهرب إلى المنزل وتغلق الباب خلفها.

في هذه المرحلة عندما أغلقت كل الأبواب في وجهي، وخذلتني كل الأشياء التي آمنت بها، أمنياتي، أحلامي، الأمل الذي لا شفاء منه، شعرت أن حياتي خرقة بالية، وأن كل الثقوب التي حاولت أن أغلقها بالحب انفتحت من جديد باتساع أكبر. شعرت أن لا أصدقاء لي سوى أمي، وأنني لا أستطيع أن أثق بغيرها، أو ربما لا أحتاج إلى ثقة بقدر ما أحتاج حضنها الدافئ ودعاءها.

بحثت عنها فيٰ أروقة المنزل. نَادَيْتُ اسمها مراراً لكنها لم تجب. فتذكرت كم سيصير وجهها حزيناً حين ترى الهم ينسكب

من وجهي، ومن المؤكد أنها ستبكي كما تفعل دوماً في كل مرة ترى فيها دموعي. فقررت أن لا أدعها تعرف بوجعي أبداً.

* * *

الساعة الثامنة صباحاً.

لماذا لوثت صباحي بهذا الشكل، لماذا لم تختر توقيتاً آخر لتقول لي أننا انتهينا. وأن علي أن أكمل هذا الصباح الماطر وحدي من دون أن أسمع منك عبارة «أنت مطري».

ارتديت معطفي وخرجت إلى الشارع لا أدري إلى أين أذهب، بدا العالم ضيقاً جداً. لا ابتسامات. لا غيوم بيضاء، فقط رمادية وسوداء. لا موسيقى. لا زهر لوز أو ليمون. لا أغنيات لفيروز. لا عصافير. فقط صوت تلاوة القرآن يأتي من بيت الحاج أبو سليم. ومطر غزير يغرق القرية بأكملها.

كان حفيد الحاج أبي سليم يقف أمام دكانه ويبكي، ترددت في الاقتراب منه، خشيت أن أسمع خبراً موجعاً آخر. يكفيني ما سمعت حتى الآن فأنا أخشى أن ينفلت قلبي مني كما ينفرط عقد اللؤلؤ حبة تلو أخرى.

مات الحاج أبو سليم. مات تاركاً خلفه الدكان والبندقية القديمة التي ظلت معه بعد الحرب مُعلقة في صدر الواجهة المقابلة للباب. مات قبل أن يرى حيفا ويافا وعكا، وكل شبر من الساحل الفلسطيني. رحل من دون أن يودعنا، وقبل أن يتذوق برتقال يافا، أو سمك عكا الطازج. قبل أن يتنفس هواء البحر المنعش. غادر أبو سليم قبل أن أرافقه إلى طبيب العيون ليفصل له

نظارة جديدة. ظل حتى آخر يوم في حياته يراقب الحياة المملة من خلف نظارة سميكة ومشوشة.

كنت أسمع صوت الكمنجات الحزين ينبعث من أعماقي الثائرة، شعرت أن الأرض تدور بي، لا أعرف إلى أين أذهب، كل الجهات مغلقة حتى الجنوب. بعد ساعة من المسير في طرقات القرية تحت المطر، وجدت نفسي أجلس على عتبة منزل يافا.

وحيدة.

أبكي.

يـافـــا

(22)

أتأمل الفتاة المسكينة التي تغفو في سريري، تنتفض بين حين وآخر تحت الملاءات، وتهذي على الرغم من أنها تغط في نوم عميق فأشعر بالأسف عليها. حرارتها مرتفعة، والكمادات الباردة لا تجدي نفعاً. تفتح عينيها قليلاً، تنادي اسماً لا أتبينه تماماً، ثم تغفو من جديد.

كنت قد عاهدت نفسي ألا أفتح هذا الباب لأحد، أن لا أخالط البشر مجدداً كي لا أعيش فقداً آخر يوجع قلبي الذي ما عاد يحتمل المزيد. فكل الذين عبروا في حياتي لم يمروا هكذا. بهدوء وسلام. كانوا يأتونني كعاصفة هوجاء تبعثرني وتترك قلبي خلفها مزيجاً من الفوضوية والحطام. كانوا يملأون أرصفتي بالصخب والفرح، بكل أنواع الزهر والعطر، حتى اعتادهم ثم يغيبون تاركين خلفهم مقاعد فارغة، تظل مخلصة لهم وإن غابوا ألف عام. تعبت من محاولة ترتيبي بعدهم، ورصفي كمربعات شطرنج مدروسة بعناية. تعبت من تعلقي بهم، من جنوني الذي أودى بي إلى الهاوية.

لا أدري كيف غافلتني نفسي وأدخلت هذه الفتاة إلى هنا. كيف رقَّ قلبي لها حين رأيتها تتهاوى على عتبة المنزل هذا

الصباح. كل ما أعرفه أنني استعدت تاريخي كاملاً في اللحظة التي سقطتْ فيها أمام الباب. ووجدت نفسي أركض نحوها وانتشلها كأنني أجد فيها عمري الذي ضاع مني من دون أن انتبه أن طوق النجاة كان طيلة الوقت أمام عيني من دون أن امتلك الجرأة الكافية لأمد يدي نحوه.

أتأمل هذه الفتاة ذات الملامح الطفولية فأشعر كأنها مرآتي. تبكي وهي نائمة كما كنت أفعل أيام كانت لي القدرة على البكاء. كانت أمي توبخني على بكائي أثناء النوم، وكنت عبثاً أغطي رأسي بالملاءات والوسادة كي لا ترى دمعي الذي لا أعرف كيف أخفيه في قلبي. أمي التي ماتت وهي تحلم بأن ترى ابتسامتي ولو لمرة واحدة. أو ترى قلبي يخلع حداده.

* * *

خرجتُ من الغرفة بعد أن بدلتُ لها الكمادات، وأغلقت الباب بهدوء لأعود إلى غرفة الجلوس حيث تركتُ رسائلها التي كانت تضعها بشكل يومي في صندوق بريدي.

هذه الصغيرة المرحة، برسائلها العفوية وحكاياتها الجميلة، أعادت بعض النور إلى حياتي بعد أن غرقت في الظلام سنين طويلة.

ما زلت أذكر وقع رسالتها الأولى في قلبي. دهشتي بها كانت أكبر من كل شيء. فبعد أن ظننت أنني صرت نسياً منسياً، جاءت هذه الفتاة لتذكرني أنني لست شبحاً. أن هناك من يهتم لأمري، وأن خارج جدران هذا البيت ما زالت هناك حياة.

كانت بمثابة بقعة النور الأولى التي يراها الخارج من نفق مظلم. كانت هذه الفتاة رسالتي القادمة من مكان بعيد هو الحياة.

أعادت لي زمن الرسائل والصحف، وأياماً كنت فيها أفتح عيني على مدينة جميلة، وكل جمالها أنكَ فيها. وأنني متى ما احتجتك سأجدك إلى جانبي. وسنسير معاً إلى العمل ونعود معاً. وقد تدعوني لفنجان قهوة فتمارس هزلك المعتاد بمحاولة قراءة قدري في الفنجان. ترفع حاجبك الأيسر فتصير عيناك أكثر اتساعاً. تحدق في الفنجان قليلاً، ثم ترفع بصرك إلي فتلمع عيناك في مكانهما كقمرين وتقول:

- ستحبين رجلاً مجنوناً، تركضين معه حتى يتعب قلبك قليلاً، تتوقفين لالتقاط أنفاسك فيسبقك، وتلاحقه عيناكِ حتى يدرك المجنون حين يلتفت خلفه أنك واقفة كنخلة شامخة تمدين غصنكِ نحوه. وسيظل للأبد يعود إليك كلما تعبتِ ليسحبكِ من يدكِ، ويركض بكِ إلى قدركما معاً. وإن تقاعست عن الركض معه سوف يحملكِ على ظهرهِ ليأخذك إلى آخر الدنيا، ويقول لكل العالم أنك أنتِ وطنه وبندقيته، وزهرة الياسمين الوحيدة الباقية على شجرة عمره.

كنت تتوقف عن الحديث لبُرهة وتتأمل ملامحي المتُعجبة ثم تضحك بصوت صاخب، ومجنون من اندماجي في هذيانك، وصمتي في حضرة كلماتك.

- لماذا تضحك؟

- لأن صورة الرجل الذي أحدثكِ عنه تظهر في عينيكِ الآن.

- حقاً؟

- نعم، وهو يشبهني كثيراً. هل تريدين نصيحة؟

- ماذا؟

- أغلقي عينيك عليه جيداً حتى لا يهرب منك، فأنت امرأة سريعة البكاء، وهو لا يستطيع احتمال دمعكِ.

أصمت طويلاً وأتأملك وأنت تكتب على المساحات الصغيرة الفارغة في الصحيفة التي حملتها معك في أثناء خروجنا من المكتب. أتنبأ بأن الهاماً ما أتاك فأردت أن تدونه قبل أن تنساه، وأتساءل بيني وبين نفسي عن هذا الرجل المذهل الذي يجلس على المقعد المقابل، ويحمل تحت القشرة الصلبة التي تحيط به قلباً ليناً وهشاً، يحب الموسيقى والشعر، ويرِّفرف كحمامة بيضاء في سماء الحرية.

- ههههه، لماذا صمتٍّ؟ هل صدقتِ ما قلت؟

لقد كنت أمازحك. أنتِ درامية إلى حدِ غير معقول.

ثم تضحك مجدداً وكنت أشاركك الضحك حتى نصير «فرجة» لكل من في المقهى. فأخبىء ما تبقى من ضحك في قلبي فتضحك وحدك من خجلي وارتباكي وتقول:

- لا تكترثي بهم. إنهم جبناء. يريدون أن يصيروا مثلنا لكنهم يخشون الضحك!

- حسن، تعرف أنني أحبك، أليس كذلك؟

- أعرف أنكِ مجنونة.

لقد طلبت منكِ سابقاً أن تحبي رجلاً تكونين في قلبه وحدك. فكما تعلمين في قلبي امرأتان سواك.

- لا مانع لدي فأنا أحب كلتاهما.

وكنت أسعد امرأة في الدنيا لأنني أعرف أن المرأتين في قلبك هما أثمن ما في الوجود. أمك التي تتباهى بها أمام أصدقائك بأنها أفضل طاهية على الإطلاق، وأفضل امرأة في إعداد القهوة، وأنها حين حاولت المجندة الإسرائيلية طردها من بيتهم في أثناء غياب والدها وإخوتها في الجبال وقت الحرب، أمسكت بها من شعرها وأوسعتها ضرباً، ثم رشقتها بالماء المغلي الذي كانت تعده لتحضير الطعام. أما الأخرى، فلسطين، فهي سيدتك وسيدتنا جميعاً.

(23)

«يا قمر أنا وياك صحبة من صغرنا

حبينا قمرنا وعشنا أنا وياك

و ياما أنا وياك لونا سمانا

و زرعنا هوانا يا قمر أنا وياك».

حياتـي بدأت بحـب حســن، لا أذكر كيـف كنت أعيـش قبله، لأنه لم يحدث أبداً أن فعلت. حســن الذي يكبرني بستة أعوام كان أول من حملني بين ذراعيه حيـن أنجبتني أمي. لقد اسـتمعنا كثيراً، أنا وهـو، لأمي وأمه تتحدثان عـن تفاصيل ذلك اليـوم. كيف تغيب الطفل الصغير عن المدرسـة ليبقى في البيت فيشـهد حدث قدومي لهـذا العالـم. حسـن الـذي جلس إلـى جانـب والـدي يـردد خلفه كلمات الآذان في أذني اليمنى، والذي انتظرنـي بفارغ الصبر لتصير له صديقـة تشـاركه اللعب في السـاحة الخارجيـة المشـتركة ما بين منزلنا ومنزلهم، أنا التـي صرت مع الأيام صديقتـه، وأخته، وحبيبته التي يقاسمها كل قطعة حلوى يحصل عليها.

حســن الذي سـاعدني على تعلم الأرقـام والحـروف الهجائية بالعربيـة والإنجليزيـة، وأول من أهداني كراسـاً للرسـم مـع أني لم

أكن قد تجاوزت الثالثة من العمر. حسن معلمي في كل شيء. علمني لغة الورد حين كان يقطف لي كل صباح وردة من حديقة المنزل. وعلمني لغة الموسيقى حين كان يأخذني برفقته إلى المعهد الموسيقى. حدثني عن فلسطين والبحر والسماء. وعلمني أسماء العصافير وكل شيء عنها، نوعية طعامها، شكل جسمها، أسماء ريشها الناعم. عن القرى الفلسطينة المهجرة. عن الحرب. عن الأبطال والشعراء والفلاسفة. حسن الذي أخذني إلى السينما في وقت لم تكن السينما فيه إلا للذكور.

«خطر الهوى عالعين والحلو ناطرنا

ضحكوا قناطرنا بالورد عالميلين

و الحكي حكي وعالبال قصص الهوى تنقال

خطر الهوى بالدار قالولنا أوعى

بكرا الدنيي بتوعى عسرار منا سرار

قصص وقصص تنقال حلم ولفي عالبال»

حسن الذي كان ينتظرني أمام باب المدرسة بعد انتهاء الدوام لنعود معاً إلى المنزل، فيحمل حقيبتي المدرسية إذا ما شعرت بالتعب ويشد على يدي الصغيرة بقوة دافئة لكي لا تنفلت يدي من بين يديه.

كنا نستذكر في شبابنا تلك الأيام ونضحك من طفولتنا المشاغبة.

- حسن، هل تذكر يومي الأول في المدرسة؟

- بالطبع أذكر وهل هذا يوم ينسى، لقد ضربني المعلم بسببكِ.

- لم يجبرك أحد على الهرب من المدرسة لتأتي وتنتظرني.

- لقد خفت عليك. ظننت أنك ستبكين إن تركتك أمك هناك وحدكِ.

- لكنني لم أبكِ.

- أما أنا فقد بكيت في يومي الأول في المدرسة.

- لقد كنتَ طفلاً سيئاً.

- ماذا عن الآن؟

- أنت الآن رجلٌ قوي لا يبكي، مع هذا ما زلت في داخلك طفلاً شقياً.

* * *

لم يكن لي الكثير من الصديقات الإناث، لأنني كنت أقضي غالبية الوقت برفقة حسن. نجلس بعد العودة من المدرسة في الساحة الخارجية نستذكر الدروس ونحل الواجبات المدرسية. ولطالما حفظت القصائد معه، وكثيراً ما كان يقص علي القصص التي يدرسونها في كتاب اللغة العربية للصفوف العليا، أو تلك التي يحدثهم عنها المعلم.

أما في المساء، فكان والد حسن يحضر العود ويعزف لنا ويغني بعض الأغنيات الشعبية وأغنيات فيروز. يحدثنا عن حيفا ويافا وعكا وكل المدن التي استولى عليها اليهود في أثناء النكبة. عن معاناتهم حين طردوا من منازلهم وتشردوا في كل مكان. وعن

حياة المخيم القاسـية. عن محاولة العودة إلـى الأرض الأولى. عن الذين ماتوا في أثناء محاولتهم. كان يردد دائماً:

- الذل اللي شفناه بعد التهجير خلى كل الناس يتمنوا الموت في بيوتهم هناك ولا البهدلة هون. الموت في البلد أرحم.

كنـت أرى نظـرة الغضب والحقـد في عيني حسـن. لـم يفهم أبداً كيف استطاع أهله ترك منازلهم في يافا والهـرب إلى هنا. قال لي مـرة أن هربهم لا مبـرر له. وأن الهـرب هو ما سـهّل من مهمة اليهود.

- لو لم يكونوا جبناء لكنّا الآن في أرضنا حيث البحر. الدفاع عن الأرض وقت الحرب تحديداً أسـهل بآلاف المرات من الهرب ومحاولة الرجوع إليها لاحقاً.

* * *

كان يسـتعير بعض الكتب من مكتبة المدرسة، ويشتري بعضها الآخر من السـوق ممـا يوفره مـن مصروفه ومـن الأعمال البسـيطة التي يقـوم بها في العطلـة. يقرأ الكتـاب أحياناً ثم يقدمـه لي لأقرأه من بعده، وفي أحيان أخرى يجلس إلى جانبي ونقرأ الكتاب سـوياً فأخبره بما فهمـت من الكتـاب، ونتناقش طويلاً بالمحتوى ويشـرح لي كل ما لا أفهمه، ثم يطلب إليَّ أن احتفظ بالكتاب عندي.

حسن الذي أطلعني على أول قصيدة كتبها لفلسطين حين كان في السـابعة عشـر من عمره. لم يكترث لصغر سـني وفـارق العمر بيننا، ولم يفكر للحظة أنني لـن أفهم ما يكتب ويقول. لقد كان يثق بي، ويثق بأن مستوى عقلي يتجاوز عمري بكثيـر، ولهذا صار بعد

ذلك يقرأ لي كل حرف يكتبه، ويأخذ رأيي في ما يكتب فأصفق له بحرارة، وأقول له أنه سيكون يوماً ما كاتباً عظيماً يكتب لفلسطين ويرفع مجدها للسماء.

كنت أخبئ في صندوقي الخشبي كل القصصات الورقية التي يكتب عليها أشعاره، وقصصه القصيرة وملاحظاته حتى أنني ما زلت احتفظ بها حتى هذه اللحظة ولا أظن أنني سأحتمل خسارة فقدانها أبداً. فهي كنزي الثمين الذي لا يشاركني فيه أحد.

نشر حسن أول مقال وطني وسياسي له في إحدى الصحف المحلية بعد عام واحد من كتابة أول قصيدة كاملة، أي عندما كان في الثامنة عشرة. فرحت كثيراً بهذا النجاح واقتنيت نسخ عدة من الصحيفة لاحتفظ بها، وأقمنا يومها احتفالاً صغيراً في المنزل. لكن الفرح لم يدم طويلاً، ففي اليوم التالي كنت انتظره كما اعتدت أن أفعل كل يوم أمام باب المدرسة بعد انتهاء الحصص الدراسية. مرت أكثر من ساعة ولم يظهر فقلقت عليه كثيراً إذ لم يحدث من قبل أن تأخر علي أبداً، ومهما تكن الظروف فإنه يجد دائماً مخرجاً ليأتي لاصطحابي من المدرسة.

قررت الذهاب للبحث عنه في مدرسته. كنت أحث الخطى نحو المدرسة وقلبي يكاد ينتحر قلقاً، فلا بد أن هناك خطباً ما حصل ليردعه عن القدوم، وظللت أتساءل طيلة الطريق عما يمكن أن يكون قد حصل له.

عندما وصلت كانت المدرسة قد أغلقت أبوابها، فعدت مرة أخرى إلى مدرستي انتظره لعله أتى وينتظرني هناك. لكنني حين

وصلت وجدت أخاه الأصغر فأسرع نحوي ما إن رآني.

- اليهود أخذوا حسن بسبب المقال اللي كتبها في جريدة مبارح.

كدت أجن من هول الصدمة، جلست على الأرض وبدأت انتحب كأمٍ فقدت طفلها الوحيد. شتمت يومها الاحتلال والسجن. ودعوت على كل يد امتدت إليه بالكسر.

كانت أياماً قاسية تلك التي قضاها في السجن، لم أستطع الذهاب إلى المدرسة وحدي، كنت كطفلة تائهة وخائفة، وآثرت البقاء في المنزل والبكاء. وعلى الرغم من أن مدة غيابه لم تتعدَ الأسبوع، إلا أنني حسبتها دهراً طويلاً، فأنا لم أعتد أن تمر كل هذه المدة من دون أن أراه. وحين خرج بعدها بكفالة دفعها والده كان أكثر إصراراً وتصميماً على المضي قدماً في الطريق الذي اختاره.

* * *

حسن الذي علمني كيف أكتب موضوع التعبير، أين أضع علامات الترقيم، وكيف أُتلافى خجلي في إلقاء القصيدة الشعرية، أين أقف، وأين أنهي الجملة حتى النهاية، أين يجب أن أخفض نبرة صوتي وأين أرفعها. حسن الذي كان يوبخ، وقد يضرب أحياناً كل من يحاول المساس بي من أطفال الحي وشبانه لاحقاً.

حتى تلك الفتاة التي ضربتني مرة لم تسلم من توبيخه. لقد كانت فتاة شرسة في نفس عمره، طلبت إليَّ أن أوصل له رسالة، وهددتني أنها سوف تضربني إن فتحتها. كنت فضولية، أردت

أعرف مـاذا كتبت لـه، ففتحت الرسـالة قبل أن أسـلمها لـه وقرأتها حرفاً حرفاً. كانت تعترف له بحبها وتبث له أشواقها وتمدحه.

عندما جـاء ليأخذنـي من المدرسـة مددت لـه يدي بالرسـالة، فأبدى استغراباً ملحوظاً:

- ما هذا؟

- افتحها لتعرف.

- لكنك على ما يبدو فتحتها وقرأتها.

- لا، لقد كانت هكذا.

- تكذبين عليّ؟

-....

- قولي.

- لن أقول شيئاً. إقرأها بنفسك.

وضعت الرسـالة في باطن كفه، وسـبقته ببضع خطـوات. كان يسـير ورائي محاولاً اللحاق بي وقراءة الرسالة في آن واحد. عندما وصل إلي وضع يـده على كتفي فارتعش جسـدي الصغير كعصفورٍ وقع في بركة ماء. اسـتدرت نحوه وعيناي ممتلئتان بالدموع. انحنى قليـلاً حتـى صار رأسـه بمسـتوى رأسـي ثـم أمسـك كفـي ووضع الرسالة فيها من جديد.

- أعيديها إليها وقولي لها إن قلبي ممتلىء.

لن أنسى البريق في عينيه حين قال جملته هذه، وطوق ذراعي وسـار بي. كنت أشـعر بأنني أطفو على الماء، أو أطير فـي الهواء.

وعرفت يومها أن لا عمر للحب.

في اليوم التالي ذهبت إليها وهي تجلس بين حلقة من الفتيات، ومددت يدي إليها بالرسالة، وقلت لها على مرآى منهن: «قلب حسن ممتلئ»، كنت أقولها بزهو كأنني أباهي العالم بحسن.

(24)

استيقظت الصغيرة مساءً، - فكرت أنه لو تزوجنا، حسن وأنا، لكانت طفلتنا الآن في مثل عمر هذه الفتاة، في بداية العشرينيات تقريباً -، كنت ما أزال في الصالة أقلب الأوراق وأكتب، عندما خرجتْ من غرفة نومي، والارتباك باد على ملامحها. كانت تتأملني وبقايا الدموع تطفو على وجهها.

عرفت من نظرة عينيها من دون أن تنطق حرفاً واحداً، أن صديقها الذي كتبت لي طويلاً عنه قد خذلها، وحده الحب قادر على تحطيمنا مهما كنا أقوياء، الشجعان الذين يقفون في وجه كل شيء، يأتي الحب ليظهر نقاط ضعفهم فتجدهم أكثر ليناً من سنبلة قمح، تكفي نسمة حب واحدة لقتلهم.

- عودي إلى منزلك الآن، وطمئني والدتك، فمن المؤكد أنها قلقة عليك.

- لكن.....

- عودي غداً، سأكون في انتظاركِ.

فاجأني صوتي.

كنت أظن أنني فقدته في خلال عشرة الأعوام الماضية، فلم

أكـن أسـمع إلا صـوت أفـكاري وصداهـا الصاخـب فـي أعماقي. صوتي الذي أبهر حسـن مراراً وجعله يكتب لي قصائـد عدة لم تر إلا نور عينـيّ وعينيـه، واحتفظنا بهـا لنقرأها على أطفالنـا الذين لم يأتوا إلى هذه الحياة.

بدا صوتي غريبـاً حين تحدثت وشـعرت أنني سـألتَفت حولي بحثـاً عـن مصـدر الصـوت، لو لـم أكن علـى ثقـة مـن أن لا أحد غيري وغيـر الفتـاة الصغيـرة في هـذا المنزل. هـل سأسـتقبلها غداً كما أخبرتها، أم أنني سـأعود لانغلاقي التام على نفسـي كما فعلت في خلال عشـرة الأعوام الماضية؟ لماذا أشـعر أننـي أعرفها، وأنها طفلتي التي لم أنجبها.

لو تزوجنـا أنا وحسـن لكنّا الآن نسـكن في لنـدن أو بيروت، وربما هنـا فـي هـذه القريـة الهادئـة. سـأكون قـد أنجبت لـه صبياً وفتـاة كمـا حلمنـا. وسـتكون أفـراح كثيرة قـد مـرت علـى منزلنا، أول مرة نطقـا «بابا وماما» وأول مرة اسـتطاعا فيها الوقوف والسـير علـى أقدامهما الصغيـرة، أول سـنّ يبـرز في الفـم. احتفالنـا بأعياد ميلادهما، نجاحهما في الثانوية العامة بتفوق، تخرجهما من الجامعة ومناسبات تمطر علينا السعادة.

قد نـورث الفتاة موهبـة الكتابـة، لتؤلف القصص والشـعر كما فعلت أنـا ووالدها، وقـد يكـون الفتى عـازف بيانو مخضـرم، يملأ البيت موسيقى. نرافقه من احتفال لآخر. جالسين إلى جانب بعضنا في الصفوف الأولى، وهالة مـن الفخر تحيط بنـا. تنهمر دمعة فرح على وجنتي فيمسحها حسن بيده الناعمة ونبتسم.

أفـراح كثيرة كانـت سـتمر علينا، لو لـم تخطف الحياة حسـن مني وتتركني أعاني مرّ الفقد والغربة طيلة خمسةٍ وعشرين عاماً. ثم يأتي من يقول لي «خمسة وعشـرون عاماً وما زلت تذكرين حسن»، وهل مثل حسن ينسى؟

خمسة وعشرون عاماً وحسن يرافقني مثل ظلي، أأنساه بخمسة وعشرين عاماً أخرى، أو حتى بمئة؟

لن أسـتطيع حتى وإن حاولت. فنحن لا ننسى بقرار. ويحدث كثيـراً أن تكـون لدينـا كامل القـدرة علـى النسـيان لكننـا لا نفعل. نريـد أن نظل حتى اللحظة الأخيرة متشـبثين بالماضـي. نقتات على حزنه وفرحه، على قمته وقاعه، لحظاته العظمـى والدنيا، لكي يظل هناك شـيء ما يثبت أننا كنا هناك فـي ذلك الماضـي الجميل، بأننا كنا سـعداء وأحراراً. وأن ما عشـناه لـم يكن حلماً عابـراً بل حقيقة مسجلة في ذاكرتنا إلى الأبد.

أما أنا فقـد اخترت قدري منـذ اليوم الأول لرحيل حسـن، لن أنساه ولو وضعوا النسيان أمامي على طبق من ذهب.

(25)

عندما عدت إلى هنا قبل عشرة أعوام، بعد غربة دامت خمسة عشر عاماً في لندن، كانت الدنيا قد اختلفت تماماً. الأشياء لا تشبه نفسها، البشر أيضاً. كأن البلاد انتقلت من عصر لآخر. خمسة عشر عاماً مدة كافية لتكتسي الحياة في بلد رحل عنه أهله إلى المنافي رداءً لا يمثلها، ولا يمثل الطريق المفترض أن تسير فيه. كنت أعرف وأنا أترجل من الحافلة التي نقلتني إلى فلسطين عبر جسر الأردن، أنني أدخل وطناً بات لا يعرفني، وأمضي إلى مدينة ليس لي فيها أحد. كنت أتأمل الوجوه حولي، وفي قرارة نفسي أغبطهم لأن هناك من ينتظرهم. عائلة، أقارب، أصدقاء أو حتى أعداء. فالخواء كل الخواء أن لا تجد من ينتظرك حين تعود. ولا حتى غصن شجرة كنت يوماً تجلس في ظله!

تذكرت حسن، غربته الأولى حين سافر لإكمال تعليمه الجامعي في بيروت. تذكرت أمه بوجهها المنفعل جالسة أمام الطابون في القرية كما اعتادت أن تفعل حين تغضب، تلقي قطع الخشب الصغيرة في فم النار كأنها مع احتراق كل غصن تحرق شيئاً من حزنها وحسرتها. كنا يومها نقضي الإجازة الصيفية في القرية، كما اعتدنا أن نهرب من صخب المدينة الصيفي.

- بديش إياه يطلع خطوة برات البلد. بديش أنام بين القبور ولا أشوف منامات وحشة. بدي إبني آخر النهار يرجع عالبيت وينام بغرفته. ترجيت أبو حسن. دفنت راسي في حضنه. صرت أبوس بإيديه وأترجاه يخلي حسن هون. بدناش إياها الدراسة يمّا. هو يا رب ناقصنا نذوق أكثر من اللي ذقناه.

حين تركت الموقد مشتعلاً لحقت بها إلى المطبخ، كانت تحدثني وهي تُخرج أواني الطبخ النظيفة لتعيد تنظيفها من جديد! ثم ترفع طرف ثوبها لتمسح بهِ وجهها الغائم.

- إحكي معه انت. يمكن يسمع كلامك ويضل هون.

لكنني لم أحاول. وفي ذلك الوقت، عندما كنت أبكي لأن حسن سيغادر البلد، كنت أبكي لأنني أفارق حبيباً من دون أن أدرك المغزى من خوف أمه. فامرأة فلسطينية قوية مثلها، صلبة كحجر صوان لا يجدر بها أن تخاف، امرأة هُجرت من قريتها في يافا لتذوق مرَّ اللجوء وتحتمله على الرغم من كل شيء، كيف لا تحتمل غياب ابنها لعامين أو أربع.

كانت تبكي جهراً، تدق على صدرها بين حينٍ وآخر. «آخ يا ميمتي». بينما كنت أخبئ دمعي لأبكيه خلسة على وسادتي قبل النوم.

لقد عاهدت نفسي ألّا أبكي أمامه. يكفيه حرقة القلب التي تلسعه بدمع أمه. أردت أن أكون قوته وسنده.

- طفلة البكاء لم تَبكِ حتى الآن. ما الأمر؟

- حسن. عدني.

- بماذا أعدكِ؟

- هل ستعتني بنفسك جيداً؟

- أخشى أن أعدك بشـيء فأخلف وعدي لك. عديني أنت أن تعتني بنفسك وبأمي. وصلي دائماً لأجلي.

- أنا دائماً أصلي لأجلك.

- أطمع بالمزيد.

(26)

لقد مرت أيـام عدة علـى اختفـاء الصحفية الشـابة. كنت أظن أنها سـتعود في اليـوم التالي كمـا اتفقنا. انتظرت حماسـها لسـماع حكايتي بعد أن قررت أن استجمع شـجاعتي أخيراً وأبوح بحكايتي لفتاةٍ شعرت أنها تشبهني أو تحديداً تشـبه ما كنتُ قبل أعوام. لكن في الحقيقـة، غيابها غير المبـرر كان مثيـراً للقلق. مع أنـي لم أكن متيقنّة حيـن قلت لهـا «تعاليّ غـداً» من أنني سـأفتح لها بـاب بيتي مجدداً -إن عادت- فإنني الآن أعد الثواني لأراها وأستقبلها.

في المـرات الماضيـة حين كنـت أتركها ترتجف تحـت المطر أمام بيتي كنت أشعر بعذاب الضمير يمزقني، أجلس بعدها لأيام من دون أن أتناول الطعام. كنت أعاقب نفسـي على الأذى الذي ألحقه بقلب فتـاة لا ترجـو إلا وصالـي، والوقوف إلـى جانبي فـي طريق الوحدة الطويل الذي أوقعت نفسي به منذ أعوام.

كنت فـي خـلال الأعـوام الماضية قد نسـيت شـعور الانتظار، فأنا ومنـذ غياب حسـن لم أعـد انتظر شـيئاً. لا أحـلام ولا أمنيات ولا نجاحات. مجرد فراغ وخـواء يجعل اليوم يشـبه الأمس والغد. هل هناك ما هو أقسـى من أن تجلس من دون أدنـى توقع أو لهفة للحظـة التالية من عمـرك؟ كأن حياتـك لا تخصك أنـت. أو كأنك

تلبس جسدك فارغاً من قلبٍ وحواس.

بعد حسن لم انتظر شيئاً إلا الموت، وحين تأخر في القدوم نسيت أن انتظره هو الآخر فكان حسن آخر انتظاراتي.

حسن انتحاري.

حياتي وموتي.

ما زلت حتى اليوم أعجب من قدرتي على تحمل كل ما مررت به حتى هذا اليوم. كانت حياتي مثالية وجميلة وتسير كما خططت لها، حتى حين حزم حسن حقائبه وغادر إلى لبنان، كنت ما أزال أحمل الحب في قلبي كثمرة طيبة تنضج على مهل لحين عودته إلى البلاد حاملاً شهادته في كف، وقلبه الذي ولدت فيه في الكف الأخرى.

على الرغم من أني شعرت لوهلة أن راحة البال غادرت مع حقائبه، وتلويحة يده. كأنني في تلك اللحظة التي صار فيها الهواء خالياً من رائحة عطره، تحولتُ من طفلة صغيرة إلى امرأة تعرف تماماً معنى الغربة والفقد. امرأة يمزقها الشوق لمن تحب. وتذوب مثل شمعة مشتعلة حين يغزوها الحنين في الليالي الباردة، إلا أنني كنت في أشد أيام عمري حياة. كانت تنساب السعادة بحُلتها الجميلة في روحي مثل ماء عذب. وكنت أعيش فردوسي ونعيمي بمجرد أن يذوب اسم حسن كالحلوى في فمي.

وبين حينٍ وآخر، ترهقني التساؤلات. هل تناول حسن طعامه؟ فأفقد شهيتي للطعام. هل وجد من يغسل ملابسه ويكويها؟ هل سريره مريح؟ هل ينام جيداً؟ هل يشعر بالبرد؟ هل يقرأ أم أنه

لا يجد وقتاً لذلك! كيف تسير أموره الدراسية؟ هل يكفيه المال الذي يرسله له والده؟ هل يشتاق لي كما أشتاق له الآن؟

هل صافحته إحدى النساء فعلق عطره في يدها، فشعرت أن بين يديها كنزاً عليها أن لا تفرط به؟ هل سار على شاطئ بيروت برفقة إحدى النساء الجميلات؟

أسئلة كثيرة كانت تدور في ذهني، كنت طفلة صغيرة بقلب امرأة عاشقة في العشرين أو أكبر. كان قلبي يخفق بشدة حين تصل رسالة منه. كانت تظهر حولي فراشات ملونة حين يخصص لي رسالة من رسائله مع رسائل العائلة. رسالة لي وحدي يحدثني فيها عن بيروت، عن الجامعة، عن المكتبات والشوارع، ورائحة القهوة، والحارات القديمة. عن المحاضرات، والنقاشات، ومعاهد الموسيقى، والندوات الثقافية، والمقاهي. وكل الأشياء التي لا يذكرها لعائلته. أسراره وحكاياته ومغامرات لا يعرفها أحدٌ غيري.

لن أنسى أبداً لهفتي وأنا أستلم الرسائل من الخالة أم حسن، بوجنتين متوردتين ويدين مرتجفتين خجلاً. ثم أركض إلى ساحة البيت، لأجلس تحت الشجرة الكبيرة، أحضن الرسالة وأتنشق رائحتها العطرة. ثم أفتح المغلف الأبيض كأن قلبي يسابق أناملي، وأقرأه حرفاً حرفاً. وأعيد القراءة عشرات المرات، ثم أحضن الرسالة من جديد وأرفع رأسي للسماء، حالمة بيوم عودته.

كانت الأيام تتابع، وفي كل عام عندما يعود في إجازة، يجد أنني ازددت نضجاً، جمالاً وخجلاً. لم أعد تلك الفتاة الصغيرة التي تلبس مريولها المدرسي وتسير إلى جانبه متشبثة بيده بكل

قوة. بل صرت شابة حين تسمع نبأ عودته تبدأ طقوس إستعدادها لاستقباله، ويزداد عدد الساعات التي تقفها أمام المرآة لتجميل نفسها واظهار أنوثتها.

تعطر فساتينها، وتزين شعرها الأسود الطويل، وتكحل عينيها بالإثمد. ثم حين يقترب موعد اللقاء تستيقظ باكراً في الوقت المحدد، بالرغم من أنها لم تنم تلك الليلة لأن أرق السعادة غزا حواسها كما يغزو الشيب فروة الرأس، وهي تفكر بقدوم فارسها.

أما حين يتناهى إلى سمعها صوت وليد، شقيق حسن الصغير، مُبشراً بوصول فارسها، فإنها تختبئ خلف الباب خجلاً لتراقبه وهو يضع حقائبه أرضاً في الممر الضيق الذي يفصل بين المنزلين، يحضن والدته ووالده ويقبل أيديهما ثم يسلم على إخوته تباعاً الواحد تلو الآخر حتى ينتهي بوليد الصغير. وعيناه طيلة كل ذلك تدوران بحثاً عن الطفلة الشقية التي كانت تجلس معه في ساحة البيت، يقرآن القصص، ويرسمان خارطة فلسطين.

- هل ابتلع القط لسانكِ في غيابي؟

- ولماذا قد يفعل شيئاً كهذا؟

- إذن فقد ابتلع القط تلك الطفلة سليطة اللسان.

- لست سليطة اللسان!

- ههههه، لا تغضبي، كنت أمازحك. لقد اشتقت لهذا الوجه الشرس!

كان الأصدقاء يتهمون حسن بأنه «نكدي»، وشديد الغموض. كان صمته يثير ريبتهم. لكنه في حضرتي كان بحراً من كلام. كان

حسن آخر غير الذي يعرفونه. حسن الخاص بي وحدي!

* * *

بعد أن أنهى دراسته الجامعية، عاد متعباً، كمن يحمل العالم على كاهله. شاب في الثانية والعشرين من العمر، تتكئ على ظهره بشاعة الحرب الأهلية، ورائحة الموت النتنة، وتطل من عينيه فوهات البنادق، والمدافع، والرصاص. وتسمع في بحة صوته أزيز الطائرات التي قصفت مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية.

ساهماً ظل لأسبوع من دون أن يسأل عني أو يحدثني. يجلس على درجات السلم رافعاً بصره إلى أعلى باحثاً عن بصيص أمل يطل عليه من سماء الوطن، عن صوت أمه، وضحكة حبيبته الصغيرة. لم أستطع محادثته مدة الأسبوع الأول من عودته. كنت أراه من بعيد شارد الذهن. كأنه عاد من الغربة جسداً من دون روح. كنت أخشى أن أغرق معه في دوامات أسئلة أعرف أنه لن يجيب عليها، وأنني سأخشى طرحها في ذلك الوقت الضيق على فلسطين، والوطن العربي، وحسن!

مع مطلع الأسبوع الثاني، وفي أثناء خروجي من بوابة المدرسة الضخمة وجدت حسن واقفاً هناك، كما لو أنه لم يتحرك، يسند ظهره الصلب إلى شجرة التوت الضخمة، والكوفية تحيط بعنقه كذراعين دافئتين لطفل صغير. يقلب بين كفيه كتاباً لم أتبين عنوانه من بعيد. وكما لو أننا لم نكبر، كما لو أننا ما نزال طفلين صغيرين، سارعت نحوه. وفي تلك اللحظة المليئة بالدهشة شعرت أن بوابة المدرسة الثانوية للبنات قد بُدلت بباب من أبواب الجنة.

وعندما رفع نظره عن الكتاب ولاحظ خطواتي التي ارتبكت فجأة، في سباق مع الزمن بين قلبي وعقلي، ابتسم فباتت الغمازة على خده أكثر وضوحاً، مما جعل قلبي يوشك أن يقع من مكانه، وشعرت أنني على وشك الهرب، لكن إلى أين؟ وكل الجهات حسن!

تقدم نحوي بعد أن وقفتُ على بعدُ خطوتين ولهفة، بخطواتٍ بطيئة وهدوء معهود وضع الكتاب تحت ذراعه، ومد نحوي يده اليمنى ممسكاً بيدي، وكورقة خريف أخذتها الريح من دون استئذان، سار بي.

- إلى أين؟

لم يسمع، وربما سمع وتجاهل صوتي الخافت فلم أكرر السؤال، بل خجلت من طرحه.

سرنا معاً في شوارع المدينة وأزقتها، مضت ساعات ونحن نتنقل من حيٍّ إلى آخر، يحدق حسن في البيوت، في وجوه الأطفال والعجائز، في المحلات التجارية والفنادق والبيوت من دون أن ينبس ببنت شفة. أما حين تعبنا من المسير بعد أن وصلنا إلى قمة الجبل الذي يطل على المدينة، جلسنا على صخرة ضخمة نراقب الغروب.

لن يصدق أحد أننا عدنا ذلك اليوم إلى البيت بعد ساعات من دون أن نتحدث أبداً، بالرغم من أنني سمعت كلاماً كثيراً لم يَقله، وسمع مني ما لم أنطق به.

قال لي بعد أيام: «عندما وضعتِ رأسكِ على صدري قريباً

من القلب، شعرت أنني أحمل آلة كمان، وأنني عازفٌ مخضرم، وأنك أنت صندوق العجائب الخاص بي، وسمفونيتي الأجمل، وجمهوري الكبير، ووددت حينها أن أخطفك وأهرب بكِ إلى مكان بعيد، أجمل مما حلمتِ».

وعلى الرغم من أنني لم أقل له أنني أحبه، ولم يقل لي أنه يحبني، إلا أن قلبه أخبرني ذاك المساء كل شيء، أكثر حتى مما وددت أن أسمع. فنمت تلك الليلة قريرة العين والقلب. ولم أنتبه أن يد حسن الناعمة التي احتضنتني ذلك المساء، هي ذات اليد التي تعلمت في بيروت فنون القتال وحمل البندقية!

(27)

- حسن.. حسن.. حسسسسسسسن، إلى أين أنت ذاهب!

عُد أرجوك!

ضاع صوتي وصراخي في الزقاق، ابتلعت الجدران الصدى الذي تردد في ظلمة الليل، وأختفى حسن مع رفيقيه الملثمين قبل أن يجيبني.

ولأنني أعرف وجهته، لم ألحق به، ولم أمنعه من الذهاب. ابتلعت ما بقي من صوتي وندائي وعدت أدراجي. دخلت المنزل تحيط بي هالة سوداء كالقلق، ودسست نفسي في السرير هرباً من اليقظة التي يحتّمها علي غيابه. ولم أستقيظ إلا على صوت أمه في وقت متأخرٍ من الليل، تهزني والرعب بادٍ على وجهها:

- يافا

يافا

استيقظي أرجوكِ

أين حسن؟ لم أجده في سريره!

هل أخبرك شيئاً قبل ذهابه؟

هل تعرفين أين ذهب؟

فتشتُ عن كذبة أقصّها عليها لأُهدئ من روعها فلم أجد. وخشيت إن حدث له مكروه - لا قدَّر الله - أن لا تسامحني، ولا أسامح نفسي على كذبتي أبداً.

- لا أعرف. لم أره هذا المساء. لقد كنت في غرفتي أحضر نفسي لامتحان الغد.

لم أزد حرفاً واحداً فصوت الرصاص القادم من المخيم اقتحم فضاء الغرفة وأخرس أصواتنا، أنا وأمه وأمي التي ظلت واقفة أمام باب الغرفة مثل تمثال قديم. كنا نعلم أن القيامة تكاد تقوم هناك في حارات المخيم، وأن الشبان لا بد يشتبكون مع قوات الاحتلال إلا أننا لم نتحدث، ولم نبح بشيء من مخاوفنا. جلسنا في الصالة حتى الفجر نحدق في الفراغ، كأننا تواطأنا على الصمت مسبقاً كي لا تجرح أصواتنا القلِقة أزيز الطائرات، وعزف قنابل الغاز على أوتار القلوب.

عند الفجر جاءت الأنباء، وشعرت بالخجل من نفسي -حين عدت لصوابي- لأنني فرحت لعدم ورود اسم حسن ضمن أسماء الشهداء الذين ارتقو إلى السماء، والجرحى الذين ناموا على أسّرة المستشفيات تلك الليلة. عندها بكيت من أنانيتي، بكيت على أمهاتهم، وأخواتهم، وحبيباتهم. بكيت على من سيفتقدهم، ومن سيمضي ما تبقى من حياته من دونهم. بكيت على كل عينٍ اعتادت رؤيتهم. وكل نفسٍ جلست تضحك معهم. وكل طريقٍ ساروا عليه. بكيت على البنادق التي ستصير في غيابهم منزلاً للصدء إن لم تجد

من بعدهم خليفة يحملها عنهم، ويكمل السير في الطريق الذي بدأوه.

قبل خروجي من المنزل تسللت إلى غرفة حسن واستعرت كوفيته من الخزانة، الكوفية الأخرى التي قدمتها له في عيد ميلاده السابق لم تكن في مكانها فعرفت أنه يرتديها. كانت غرفته لا تزال على حالها. فراشه مبعثر وأوراقه في كل مكان. والكتاب الذي كان يقرأه في الآونة الأخيرة ما زال مفتوحاً على الصفحة التاسعة والثمانين. تناولت أحد الأقلام وكتبت له على تلك الصفحة «أحبك، أرجوك لا تمت، سأقتلك إن فعلت أيها الأحمق» ثم أغلقت الكتاب وتوجهت إلى حيث ستكون الجنازة.

على عكس ما توقعت لم تستقبلني أصوات البكاء والنواح بل الزغاريد والفرح. الأناشيد الوطنية تنبعث من كل مكان، والورد يزين الطرقات. الحلوى توزع على المارة. كأن عرساً قد أقيم هناك.

- اليوم عرس الشهيد.

- تحلية عرس الشهيد.

- العرس هناك آخر الشارع، أم الشهيد بتستقبل التهاني في هذيك الدار.

كمن يسير على غير هدى، دخلت مجلس النساء، ومن دون أن ألتفت لأحد جسلت على أول كرسي فارغ صادفني. ذرفت الدموع العالقة في حنجرتي. ثم بهدوء ألقيت نظرة على كل الوجوه هناك. وعرفت أم الشهيد من دون أن يرشدني أحد إليها. عرفتها

من صبرها، ورباطة جأشـها، والنظرة المتحدية في عينيها. توجهت نحوها. قبّلت رأسها وغادرت!

بعد أن أنهيت إجابة الأسئلة في ورقة الامتحان الجامعي، سرت في الشـوارع طويلاً. زرت كل الأماكن التي نسير فيها عادة، حسن وأنا حين نشعر بالضجر. توقفت عند بائع الذرة وجرحني سؤاله عن حسن حين لم أجد له إجابة.

هل كنتُ أبحث عن حسن وأتتبع خطواته؟ لا أدري.

بعد ساعات شعرت أنني سـأنهار إن استمريت في الدوران في الحلقة ذاتها فعدت إلى المنزل، وبدلاً من دخول غرفتي، توجهت إلى غرفة حسن وغفوت في سريره.

قبل أن أغرق في اللحظة الفاصلة بين النوم واليقظة، تكرر أمامي المشهد الذي حدث الليلة الماضية حين كنت في صالة منزلنا أراجع دروسي للامتحان، سمعت باب بيت حسن يُفتح، فسارعت بفتح باب بيتنا لأجد حسن على العتبة يربط حذاءه استعداداً للخروج ففاجأه استيقاظي في هذا الوقت المتأخر:

- الأميرات ينمنَّ باكراً، فماذا تفعلين حتى الآن!

- أدرس لامتحان الغد، إلى أين أنت ذاهب؟

- عليكِ إذن أن تتفوقي في امتحانك. إذهبي للنوم.

- لم تُجب عن سؤالي. إلى أين تذهب؟

قاطعنا صوت رفيقه الذي يقف أمام البوابة الخارجية «حسن، هيا بنا لقد تأخرنا عليهم». حين التَفتُ لمصدر الصوت لاحظت أن هناك شخصاً آخر غير الذي تحدث يلتفت في الشارع يمنة ويسرة،

ثم يقترب من البوابة ليستعجل حسـن والشاب الآخر. عندما اقترب لمحـت البندقيـة التي لمعـت حين وقـع عليها ضـوء الشـارع على كتفه، فاتسعت عيناي من الدهشـة، عندها ضمني حسن بين ذراعيه، وطبع على جبيني قُبلة ثـم همس في أُذني «أحبك»، وغادر مسـرعاً مع الشـابين وما أزال أشـعر حتى هذه اللحظة أنني بين ذراعيه أمام باب البيت، مصلوبةً كعمود إنارة وحيد.

(28)

بعد ليلة مرهقة أمطرتني فيها ذاكرتـي بالكثير، قررت أن أخرج من المنزل لأطمئن على الفتاة قبل أن يستيقظ عقلي ويردع محاولتي لتجاوز الباب، الذي ظل يفصلني عن الحياة لعشرة أعوام متتالية.

كيف تبدو الحياة في الخارج؟

من يدري؟

ربما تغيرت أشـياءٌ كثيرة منـذ ذلك اليوم الـذي وقفنا فيه على الحاجز الإسـرائيلي في صفٍ طويلٍ بانتظار الاذن بالمرور. لم يكن الحاجـز مغلقاً لسـبب. هي لعبـة بين يدي أطفـال إسـرائيل يقومون بالتحكم بها وفقاً لأمزجتهم العفنة.

ما زلت أذكـر وجوه كل مـن كانوا فـي الحافلة كأننـي رأيتهم أمـس. مـا زلـت أذكـر نظـرة الخوف فـي عيـن الجنـود حيـن فتح السـائق جميع نوافذ الحافلة وصار يردد بأعلى صوته أغنية موطني، والأصوات المترددة التي صـارت بعد دقائق قوية تـردد معه الأغنية بكل ما ملكت مـن إرادة. اذكر صوتـي الذي كان خافتـاً وخائفاً ثم صـار كصـراخ لبؤة جريحـة حيـن تذكرت حسـن، وسـنوات غربتي في لندن، والليالي الطويلـة التي قضيتها في منزلنـا المجاور لمنزله،

أتنقل من نافذة لأخرى في انتظار تسـلُّله ليلاً حين تَسنَحُ له الفرصة في الفترة التي كان مطارداً فيها من قِبل قوات الاحتلال.

«مَوطِني مَوطِنِي

الجلالُ والجمالُ والسَّنَاءُ والبَهَاءُ

في رُبَاكْ في رُبَاكْ

والحياةُ والنجاةُ والهناءُ والرجاءُ

في هواكْ في هواكْ

هلْ أراكْ هلْ أراكْ

سالِماً مُنَعَّماً وغانِمَاً مُكَرَّمَاً

هلْ أراكْ في عُلاكْ

تبلُغُ السِّمَاكْ تبلغُ السِّمَاك

مَوطِني مَوطِنِي»

يصـرخ الجنـدي بنـا لنصمـت، فيـزداد صوتنا علـواً مثـل راية منتصرة وحرة. يتصبب العرق مـن جبينه، يطلق رصاصـةً في الهواء فيحلق صوتنـا معها ليسـبقها. يزداد وجهـه احمراراً فتـزداد وجوهنا تألقاً وفخراً.

«مَوطِنِي مَوطِنِي

الشبابُ لنْ يكِلَّ هَمُّهُ أنْ تستَقِلَّ أو يَبيدْ

نَستقي منَ الرَّدَى ولنْ نكونَ للعِدَى

كالعَبيدْ كالعَبيدْ

لا نُريدْ لا نُريدْ

ذُلَّنَا المُؤَبَّدا وعَيشَنَا المُنَكَّدا

لا نُريدْ بلْ نُعيدْ

مَجدَنا التّليدْ مَجدَنا التّليدْ

مَوطِني مَوطِنِي»

بعد أن اجتزنا الحاجز، راح أحد الشبان يحدثنا عن الأسرى في السجون، عن الأمل بالحرية بالرغم من الأحكام القاسية والأوضاع الصعبة التي يرزحون تحت حملها الثقيل.

عن أسيرٍ رافقه في سجنه، حكمت عليه المحاكم الإسرائيلية بـ62 عاماً و25 مؤبداً، لقتله أحد الجنود. كان يردد على مسامع الشاب المحكوم بأربعة أشهر أنه سيخرج من السجن قبله.

- كنتُ أَعجَبُ من أمله بالخروج بالرغم من الحكم الطويل الذي حُكم به، ومع هذا كأن النبوءة حصلت، فخرج من السجن قبلي في صفقة لتبادل الأسرى. كانت سعادتي بتحقق أمله وخروجه أكبر من سعادتي يوم حريتي!

راح الركاب يقصون على مسامعنا حكاياتهم، بينما رحت أتفقد حقيبتي بحثاً عن صورة حسن، التي كادت المجندة الإسرائيلية تنتزعها مني حين فتشّت حقيبتي فوجدت الصورة، وسألتني عن صاحبها بغضب. ولم أعجب حينها إنهم ما زالوا يذكرون حسن ويخشونه بالرغم من كل ما مضى من زمن على غيابه.

حين امتدت يدي للصورة كدت أحدِّثُ ركاب الحافلة عن رجُلي العظيم إلا أنني اختنقت ببكاء ونشيج لازمني وقتاً طويلاً

ظننت أنه الأبد.

وشعرت يومها أن شعبنا هو شعب الحكايات العظيمة، فلا يكاد يخلو بيتٌ من بيوت فلسطين إلا وقدّم للوطن شهيداً أو أسيراً.

* * *

كانت يدي ممسكة بمقبض الباب - منذ وقتٍ طويل على ما يبدو - حين سمعت طرقاتٍ على الباب، ليُطّل عليّ من خلفه وجه الفتاة ذابلاً ومتعباً، فتسبقني بقدومها إليّ قبل أن أذهب إليها.

لم أعرف حينها إن كان عليّ أن أفرح لقدومها الذي أنقذني من الخروج، أم أحزن على فشل محاولة العودة للحياة. إن كان عليّ أن ابتهج لأنها ستخفف من وحدتي، أم أغضب لأنني سأنخرط في حياة البشر من جديد.

كل ما أعرفه أن جسدي كان يرتعش كأنني أصبت بالحمى من فكرة الخروج، كنت كطفلٍ يسحبوه إلى المدرسة وهو يريد أن يبقى في المنزل بجانب والدته. أو كعصفور ولد في القفص فبات يخاف فكرة الخروج منه.

قدماي ترتجفان، وقلبي أيضاً. ليست هذه الخائفة التي تقف بجانب الباب هي يافا التي أحبها حسن. لستُ مثال الفلسطينية القوية. لستُ الكاتبة الجريئة. ولا الطفلة الذكية. أنا مجرد جسدٍ ينتظر الكفن، وسيتعفن في هذا المنزل قبل أن يرى النور.

* * *

- كيف قَهوتكِ؟

- سادة.

موجع وجه الخيبة حين يلبس وجوهنا، موجعة أمنياتنا حين تُعلق على مشنقة الموت بعد طول انتظار، موجعة تضحياتنا حين تُقابل بالفراق ونكران الجميل، وقاتلٌ هو الأمل حين يفاجئنا بنهاية غير متوقعة. قاتلة أناملنا حين تفقد يداً أمسكتها بعطف، وهرمة حين تتوقف عن كتابة الرسائل. ذابلة خطواتنا حين نسير وحدنا، باهتة أصواتنا حين لا نقول بها كلمة «أحبك».

«كيف يُكمل حياته بعد أن قتل أحلامها؟» كنت أتساءل سرّاً بيني وبين نفسي حين بدأت تروي لي الفصل الأخير من حكايتها معه. «كيف يضع رأسه على الوسادة ويغفو مرتاحاً وهي تبكي كل الوقت بسببه؟».

كنت أُقلِّب طرفي ما بين وجهها الحزين وفنجان القهوة الذي لم تَمسَّه منذ بدأت الحديث والبكاء، وأفكر بأسئلة كثيرة تتجاذبني كالأمواج الثائرة. كيف يستطيع الرجال ارتكاب مثل هذه الحماقات غير المغتفرة؟

يبدو أن الزمن تغير حقاً في الخارج أكثر مما كنت أظن. تغير إلى ذلك الحد الذي صار فيه للحب أشكال ومفاهيم أخرى غير التي تعودت أن أراها قبل أعوام.

كنت أسمع تنهداتها الحارة، واختناقها بالكلمات التي تخجل من قولها فتبتعلها كي لا تشوه صورة حبها المجنون أمامي. وحدهن الملائكيات من النساء لا يشوهن صورة رجلٍ عشقنه بكل جنون وحبٍ، دفعن في سبيله تضحيات عظيمة لن تَفهمها الساذجات من النساء.

(29)

منذ بدأ الانتفاضة، لا نرى حسن كثيراً. يغيب أياماً عدة وربما أسابيع، من دون أن نسمع منه أو عنه إلا المقال الذي يرسله إلى الصحيفة. نتاجه الأدبي توقف. منذ عامين لَم تصدر له قصص أو روايات. أما مقالاته في الصحيفة ولشدة لهجتها تزيد من نقمة الاحتلال الإسرائيلي.

كان يكتب فلسطين كما رآها أبوه وجده، وكما يريد أن يراها هو حين تعود لأهلها وينتهي الاحتلال.

تحول مع بدأ الانتفاضة من كاتب إلى ثائر. يجتمع مع رفاقه، يخططون ويدرسون الطرق التي سيخطفون فيها بعض الجنود لمبادلتهم بالأسرى الفلسطينين القابعين في السجون الإسرائيلية.

يدعون سكان المدينة والقرى القريبة للتظاهر ضد الجيش الإسرائيلي الذي عاث فساداً في أرضنا. يوزعون المناشير على البيوت والسيارات. يثيرون حماس الشعب لاستعادة كل ما فقده من وطنٍ وكرامة.

اعتقل مرات عدة، تعرض للضرب والتعذيب لكنه لم يتزحزح عن مواقفه، وعن الثوابت التي آمن أنها من حقه. وعلى الرغم من منع التجوال الذي فرض على المدينة في ذروة أيام الانتفاضة، إلا

أنه كان يجازف ويـراوغ الموت، ليعـود إلى المنـزل ويطمئن علينا. وكنت أحمد الله أن الأمور تمر بسـلام دائماً، ويعود إلينا حياً يرزق بعد كل ما يحصل له.

«ما دام لـم يمت فهنـاك أمل، سـيعود إلى حياتنـا ويصبح كل شـيء بخير» هـذا ما كنـت أواسـي نفسـي بـه حيـن أرى الكدمات تملأ جسـده بعد كل اعتقال. هذا مـا كان يعينني علـى احتمال أيام الانتفاضة الموجعة.

* * *

عندمـا هـدأت الانتفاضـة قليـلاً، اسـتطاع حسـن العـودة إلـى عمله في الصحافـة، وانتظم العمل في الصحيفـة، فعادت تصدر في موعدها بعد الأيـام العصيبة التـي كثرت فيها اعتقـالات الصحفيين، وتأخير صدور الصحف المحيلة فـي محاولة التعتيم على ما يحدث في الساحة الفلسطينية.

صباح اليوم دعوت حسـن إلى فنجان قهوة نشربه على الشرفة قبل ذهابه إلى العمل، في وجهه سـعادة لم ألمحهـا عليه إلا مرات قليلـة فـي خـلال العاميـن المنصرميـن. يتأبـط رزمـة مـن الأوراق، يرتدي قميصه الأسـود الذي اخترناه معـاً حين كنا في السـوق آخر مرة. أناقته تشي بأنه على موعد مع حدثٍ هام في حياته. ابتسـامته التي أحب لم تفارقه طيلة جلوسـنا. حاولت استدراجه لاكتشاف ما يخفيه من مفاجآت وراء هذه الابتسامة المفعمة بالحياة.

- حسن، ما هذه الأوراق؟

- سرّ.

- دعني أرى.

- هذه عروسي، لا تلمسيها.

- توقف عن المراوغة وأخبرني ما محتواها. هل هي رواية جديدة؟ متى كتبتها؟ عن ماذا تتحدث؟ هيا أخبرني!

- ستعرفين السرَّ لاحقاً. يجب أن أذهب الآن.

- أنت لا تكبر أبداً. ما زلت تتصرف كالأطفال. هيا اذهب لا أريد أن أراك.

كنت أحب مزاحه ومراوغته، يحاول أن يبدو أكثر ذكاءً حين يخبئ عني سرّاً، لأنه يعرف براعتي في كشف جميع خدعه ومحاولاته إخفاء الأشياء عني. كنت أعرف أنها رواية، فانشغاله في خلال الأشهر الأخيرة وانهماكه في الكتابة طيلة الوقت لا بد أن تكون نتيجته رواية جديدة، ولذا يكاد الفضول يقتلني لقراءتها. لقد اشتقت أن أقرأ له عملاً جديداً بعد انقطاع طويل كقارئة تعشق حروفه.

لقد كتب فلسطين كما لم يكتبها أديبٌ قبله، كتب الأدب الفلسطيني وأدب المقاومة، كتب القصص والروايات والمقالات. أعد الكثير من الأبحاث والدراسات عن الثورات الشعبية، وأحوال المخيمات الفلسطينية وأوضاع اللاجئين. كان لامعاً في كل ما يفعله. فذّاً في فكره، وأدبه، عميقاً في ثقافته. جميلاً في تعامله مع من حوله، حتى أنني لا أذكر أن كان له أعداء في كل حياته. كان مرهف الحس لطيفاً مع الأطفال، ذا إرادة قوية، يدفع الجميع نحو النجاح والتفاؤل، ويظل واقفاً على الرغم من كل الرياح التي حاولت الايقاع به. يبتاع الورد من الأطفال الذي يقفون على

إشـارات المرور، ويقدم لهم قصصـاً قصيرة يحتفظ بها في سـيارته لمثل هذه المصادفات. يزور الملاجئ لتعليم الأطفـال اللغة العربية والإنجليزية والرسـم. ويجلس مع المشـردين في الشـوارع ليسـمع منهم، ويقص عليهم الحكايات ويعلمهم مما يعلم.

كنت أراه يجتاز الشـارع ليصل سـيارته المركونـة على الطرف الآخر، وأفكر بهذا الرجل العظيم الذي شـغفني حباً، وسلبني عقلي وقلبي. لوح لـي مودعاً قبـل أن يدخل السـيارة. جلس فـي مقعده، وضع رزمـة الأوراق على الكرسـي الأيمـن، ثم فتح النافـذة وأطل برأسه منها وقال لي بأعلى صوتهِ «أحبك».

طارت العصافير فرحاً من الشـجرة التي تظلل سـيارته، وكانت سماء هذا الصباح أجمل من ضحكة طفلٍ صغير. وأطهر من حضن أم. أردت أن أقفز من الشرفة وأعانقه ثم أصلي لله شكراً على رجلٍ أعُدّه أعظم هبة من الحياة والقدر.

كدت أنسـى بكائي في المرات التي يقول لي فيه أنه سـيموت باكـراً، وأنسـى الليالي التـي غاب فيهـا عن المنـزل، وتركنـي خلفه أجوب الشوارع كالمجانين، أدق بيوت أصدقائه، وأسال عنه أمهات الثوار الذين أعرف أنه يرافقهم. أتوسـل محرر الصحيفة أن يرشدني إلى مكان تحصنه وأصدقاءه المطاردين من قبل قوات الإحتلال.

كدت أنسى عباراته التي يقولها لي كلما وبخته على القلق الذي يسببه لي اختفاؤه. كدت أنسـى الرعب الذي ينتابني كلما سمعت منه عن المرات التي كان فيها قريباً من الموت، بل ملاصقاً له.

- يومـاً مـا سـأموت وأتـركك وحـدك لفلسـطين. هـذا يمزق

قلبي لكنني أثمل فرحاً حين أتخيل وجهك الثائر، وأنت تحملين راية كل القضايا التي آمنّا بها. عليكِ أن تجتازي خوفك عليّ، لأنني لا أملك نفسي لأعدك بأن أحفظها. أنا مِلك فلسطين، وأنت كذلك، وكل من على هذه الأرض ملكٌ لها، وستأخذنا جميعاً إلى أحضانها حين تشتاق لنا.

- لكنني أخشى أن أفقدك، أخشى الحياة بعدك. أخشى أيامي من دونك.

- امرأة مثلك تمنحني كل هذه القوة والشجاعة لأكون رجلاً لا يهزم، ويحارب بقلمه، وقلبه، وبندقيته، في زمن انهزم فيه الكثيرون لا يجدر بها أن تخاف. امرأة تحمل في قلبها كل هذا الحب لفلسطين يخاف منها الخوف ويحسب لها ألف حساب. أنت القوة التي يحتاجها هذا الوطن لينهض. أنت أعظم من أن تخافي على جسدي الضئيل أمام ما تستحقه فلسطين منا.

-.........

- لا تبكِ. فأنا لم أرحل بعد. أنا هنا إلى جانبك. أشاركك قهوة الصباح ولا أغفو مساءً إلا على كتفك. وأجد بين ذراعيك وطني الضائع. وفي عينيك الدافئتين كشعلة قنديل عتيق أعرف كل الطرق التي تقودني إلى الشعر والقصائد. أنا لكِ حين يكون الوطن لَنا، وأنا وفلسطين لك حين تداعب قدميك رمل الشواطئ فتكون الأمواج موسيقى احتفاء حيفا بكِ. أنا لكِ حين يزهر الياسمين في حديقة منزلنا، وحين يفوح عبير زهر اللوز على جبال المدينة، وحين ينشد الأطفال نشيدنا الوطني في طابور الصباح. أنا لَك في

كل حرف كتبته، وكل رصاصة دافعت بها عن وطني، وكل أغنية فلسطينية سمعناها من أمي في أعراس الجيران والأصدقاء. وأنا لكِ حين تلامس جباه المُصلين تراب المسجد الأقصى في صلاة طاهرة. دعيني الآن أمسك كفك لأشعر أنني أملك العالم بكِ. وسيري معي إلى اللحظات السعيدة التي سنصنعها معاً.

- أحبكَ.

- أحبكِ.

نسيت كل ما أوجعني في الماضي لأن الوجع الذي سببته السيارة التي مرت أمام عيني، وأطلقت الرصاص بكثافة على سيارة حسن ثم فرت هاربة، التهمت كل الوجع القديم، ليحل في موضعه وجعٌ لا يُبكى ولا يُكتب.

كامرأة فقدت عقلها، بدائية لا تعرف لغةً تعبر بها إلا الصراخ والعويل اجتزت الشارع لأتفقد نبض حسن غير مصدقةٍ أن قلبه توقف، وأن الرصاص اخترق صدره ممزقاً قميصه وجلده. أنفاسه الحارة تلاشت تماماً على الرغم من الابتسامة الثابتة على وجهه كأيقونة.

أتحسس قلبي فأجد فجوة عميقة كأن الرصاصة التي اخترقت قلب حسن، اجتازتني أولاً لتعبر إليه. أحلامي تتهاوى كمدينة ضربها الزلزال فلم يُبقِ فيها ولم يذر. أزهار الياسمين تحترق، والطيور تتساقط عن الأشجار. لا أسمع الأصوات حولي. أرى أجساداً تتحرك، أفواهاً تصرخ، سيارات تتوقف وتحيط بي من جميع الجهات لتبتلعني وحسن. أضمه إلى صدري فيحاول الرجل الذي يرتدي بزة بيضاء رسم عليها شعار الهلال الأحمر سرقة جسد

حسـن، فأتشـبث به أكثر، وأغرس أظافري في وجـه كل من يحاول أخذ حبيبي مني. أهز جسـد حسـن لينهض. أقبل جبينه وأهمس في أذنه لكنه يبتسم من دون أن يجيبني.

أنظـر إلـى السـيارة الرمادية التـي اخترقهـا الرصـاص، فألمح المخطوطة التي كانت مع حسـن. أسـارع إليها قبـل أن تختفي كما اختفى حسـن في سـيارة الإسـعاف. قطرات الدم تغطـي الصفحات الأولى. حروف أسـمي كتبـت بقلم عريـض على الصفحـة الأولى. تماماً كما كتب اسـم حسـن بالخـط العريض على الصفحـة الأولى لصحف فلسطين صباح اليوم التالي.

«مقتل الكاتب الصحفي حسن القطان».

«الموسـاد الإسـرائيلي يرسـل عناصـر مسـلحة ترتـدي ملابس مدنية لاغتيال الأديب حسن القطان في وضح النهار أمام منزله».

اختلفت العناوين والنتيجة واحدة، هي أن حسن استشهد. وأنا لا أستطيع تصديق خبر كهذا، ربما ما حدث أمس مجرد كابوس لا بد أنني سأستيقظ منه قريباً. والنسـاء الموشحات بالسواد الجالسات في صالة المنزل مجرد خيالات ستتلاشى حين يبزغ نور الفجر عبر زجاج النافذة ليذيب هذا الضباب.

حسـن لم يمت. لن أصدق كذبة كهذه. حسـن لا يموت، فقد حذرته مراراً أنني سـأمزقه إن ارتكب غياباً من هذا النـوع. كالبلهاء أنظر إلى وجـه أمي وخالتـي أم حسـن. كل العائلة هنـا. اجتماعهم يثير اشـمئزازي لأنهم يريـدون إثبات مـا أنكره. يريدون قتل حسـن مرة أخرى كما حدث بالأمس. يريدون إطلاق المزيد من الرصاص

على قلبه وروايته. يريدون دفنه وهو حي.

لم يمت. أكاد أقسم أنه لم يمت، فالموتى لا يبتسمون للأحياء. وحسن ابتسم لي عندما جسلت إلى جانبه على رصيف الشارع، ونام بين ذراعي كطفلٍ صغير. قد يكون غفا سهواً فظنوا أنه مات لكنه ربما يمازحني ويمازحهم. لا أحد يعرف مزاحه غيري، فعليهم أن يصدقوني قبل أن يلفوه بعلم فلسطين ويسيروا به وسط الحشود التي تهتف باسمه في شوارع المدينة. عليهم أن يصدقوني وينقذوه من التراب الذي سيغطي وجهه، جسده وقلبه. كيف يدفنون قلب رجلٍ مثله. قلبه المليء ببذور الفرح.

كم زهرة نرجس ستنبت من هذا القلب. كم زهرة أقحوان سَتنمو من بين أصابعه ومن عينيه وفمه. كُم قصيدة سيقرأ التراب من ذاكرته. وكم حكاية ستدفن معه في فسحة ضيقة على رجلٍ يحب الأماكن الواسعة، ويخشى الظلام فيترك ضوء غرفته مشتعلاً قبل أن ينام.

القبر مظلم وبعيد عن حيفا. لم يعد حسن إلى بيارات جده، لم يدفن بجانب البحر كما اشتهى ليسمع خطوات العشاق على الرمل. لم يعلمني فن صيد السمك. لم نذهب إلى بيسان، ولم نصعد جبال الكرمل والجليل فلماذا تأخذونه بعيداً؟

لم ينهِ حسن ما بدأه فلماذا توارونه تحت التراب؟

- كيف وصلتِ إلى هنا! عودي إلى المنزل فوراً ولا تعودي إلى هنا ثانية.

- جئت لأراك. ألا ترى أنك أطلت الغياب هذه المرة. لقد مر شهرعلى غيابك، لقد قلقت عليك. وأمك تبكي كثيراً وتسأل

عنك كل الوقت. عد للمنزل الآن. عد معي أرجوك.

- يافا، لا أصدق أنك تطلبين مني شيئاً كهذا. أنت تعرفين أننا لسنا هنا لنتلعب. أنا وهؤلاء «مشيراً بيده إلى رفاقه الذين يحدقون بنا من بعيد» هنا لأجلك. لأجل أمي. ولأجل كل فلسطيني يريد أن يكون حراً. أنت تعين هذا جيداً فلا تتصرفي بسذاجة.

- أعرف هذا، ولا أمنعك من تأدية واجبك تجاه هذا الوطن. لكن أطلب منك أمراً واحداً أن تعود لترى والدتك من وقت لآخر. هذا يعد جهاداً أيضاً.

- سأعود عندما يحين الوقت. اذهبي الآن ولا تتوقفي عن الكتابة. أنا أقرأك كل يوم. وازداد قوة حين أحقن دمي بكلماتكِ. ظلّي متوهجة كما يليق بكاتبة فلسطينية أن تكون.

تتسابق المشاهد في عقلي، وتتنافس أيها سيصل أولاً. أذكر كل حرف قاله. كل كلمة كتبها. كل نظرة من عينيه. كل دقة من قلبه. وكل نفسٍ من أنفاسه. أذكر خطوط يده وملامح وجهه. وأستعيد كل شيء، كل ما حدث بيننا، كل ما لم يحدث، وكل ما كان يمكن أن يحدث لو أنه لم يمت.

أذكر صباح الرابع من مايو، باقة الورد، والصحيفة التي أرسلها مع وليد، شقيقه الأصغر. كنا عادة نذهب معاً مساء إلى مقر الصحيفة لمراجعة مقالاتنا قبل الطباعة. لكنني أصبت بوعكة صحية ذلك الأسبوع فأوكلت إليه مهمة مراجعة مقالي الأسبوعي. مد وليد يده بالورد وابتسامة ماكرة تحاول الظهور على وجهه ويحاول بدوره إخفائها متصنعاً وجهاً طبيعياً. عندما فتحت الصحيفة لم أجد

الصفحة التي تحتوي مقالي. وعندما سألته عنها ادعى أن حسن أعطاه إياها هكذا.

- أين حسن؟

- في ساحة البيت في الطابق الأرضي.

- لماذا لم يصعد ويحضرها بنفسه؟

- إسأليه أنتِ.

نزلت الدرجات المفضية إلى ساحة البيت على عجلة من أمري، أجهز نفسي لتوبيخ حسن، وصب غضبي عليه بسبب هذه المزحة السمجة، لكنني التقيت على الدرج ريم الصغيرة ابنة الجيران التي وضعت بين يدي الورقة المفقودة من الصحيفة.

عندما فتحت الورقة المطوية بطريقة عجيبة وجدت خاتم خطبة يبرق جمالاً وفتنة. وعلى الصفحة خربش حسن فوق الكلام ليكتب فوقه «أحبك، أحبيني وتعالي إليّ إن كنت تقبلين بهذا اللاجئ الفقير ليكون رجل حياتك».

كحمامة اكتشفت متعة التحليق، طرت إليه. مرتدياً بدلة رسمية وقف أمامي. رفعت يدي ليضع الخاتم بها، فأمسك يدي وقبّلها وضمني إليه حتى تلاشيت بين أضلاعه.

أذكر كل شيء، كل شيء، كل شيء.

أنا لا أنسى

مأساتي أنني لا أنسى.

ولن أنسى أبداً

(30)

من اللحظة التي استشهد فيها حسـن وأنا أموت ميتة عفنة كل يوم. خمسة عشـر عاماً في لندن لم تغير من حالتي المأساوية. نخر البرد عظامي وأدمتني الغربة. اسـتنزفتُ روحي في المنفى. استنزفني غياب حسـن وموت أمي. نجوت من الجنون. نجـوت من الحمقى الذين زاودوا على موت حسن، وأرادوا شراء شهادته ببضع كلمات قذرة كوجوههم. نجوت من عزلتي هنا في فلسطين عشرة أعوام.

وها أنا أقـف اليـوم لأسـمع حكايـة هـذه الشـابة وأمنعها من الموت. واجبي أن أنقذها كمـا أنقذتني من جـدران كادت تبتلعني. أن أدفعها نحو الحياة دفعاً كي لا تجرب موتي.

هـا أنـا أرفـع الرايـة التـي أوصانـي بهـا حسـن، راية الأشـياء التـي آمنـتُ بهـا، ها أنـا أرفعهـا عاليـاً لأجـل هـذه الشـابة. أرفعها متأخرة خمسـة وعشـرين عاماً لأجل حسـن، ولأجل حبه الذي كبر في قلبي.

ربع قرن ومشـهد موته يتكرر كأنه يحدث أمام عيني. ابتسامته. تلويحـة يـده. أحبـك التـي طـارت لأجلهـا العصافيـر والفراشـات والغيمـات. لـو أنَ الحيـاة تمنحنـي الفرصـة لأعـود لذلـك اليـوم، وأدراي خجلـي وأصـرخ بأعلـى صوتـي وأقـول لـه أمـام كل مـن

كان في الشـارع «وأنـا أحبك أكثر، أحبـك أيها الأحمـق، المجنون، الرائع».

لـن أدع أحـداً بعـد الآن يخـون عهـده مـع الحيـاة، هـذا مـا صرخت بـه بأعلى صوتـي حين انتهـت المقطوعـة الموسـيقية التي كنت اسـتمع إليها أنا وهذه الشـابة الجميلة التي أعـادت إليّ الحياة بعد ربع قرنٍ من المـوت المؤجل. هذا ما قـررت أن أفعله بعد أن قصصت عليهـا حكايتي كاملـة، وقرأت علـى مسـامعها كل ما كتبه حسـن. بعد أن أفرغـت الحمـل الثقيل الـذي هدَّ ظهـري منذ غاب حسـن، وتركني أصـارع الحياة وحـدي شـعرت برغبتـي تتجدد في العودة إلى الحياة التي عشقتها حين أحببت حسن.

نهاية صارت بداية

أذكرُ عشيَّة سَـفرك، أذكرها كما لو أَنها تَحدث الآن أمام عيني الذابلتيـن. تريـدُ أن تنـام بَاكراً كـي لا تفوتـك الطائرة صبـاح اليوم التالي. حماسـتك الطفوليّـة للمغـادرة، للطائرة، للبلـد الجديد الذي سـتدخله، جلعتني أتمنى لو أنني طائرة، تسـتعد لها جيـداً وتنتظرها خشية أن لا تنتظرك.

لم أشـأ اغلاق عينـي لأن علـيّ إيقاظـك. خشـيت إن غافلني النوم أن لا أسـتيقظ وبالتالـي لا أيقظـك، أنت الذي لم تعشـق في حياتكَ شـيئاً كما النـوم. ولهذا آثـرت أن أمضي الليل فـي الانتظار والسـهر. أقلب أوراقـي. أفكر بكَ. أفـرش الأرض بسـجادة الصلاة وأدعو لكَ أن يا الله أحفظه وأحرسه بعينك الَّتي لا تنام، وأبعد عنه كل من أراده بسوء.

أرتشـف قهوتي، فنجاناً تلو الآخر. أكتب عنك فتقرأني إحدى الصديقات من بلاد بعيدة:

- إيش تسوي الغارقة في الحب؟
- عليّ أن أيقظ أحدهم

- قومي نامي، اسحبي عليه

- حرام، أخاف أن تفوته الطائرة

- وأنت ترهقي نفسك؟

- أمي تقول أن على أمه أن توقظه، لكنني أشعر أنني أمه.

- ههههه، هو بخليك ويروح؟ قلبه قاسي، كيف يتطمن عليكِ، مالت عليه. صح إنت هبلة، قومي نامي عشان يبقى معاج .صدقيني راح يصحى لوحده. الرجال لا كان بنفسهم بشيء رغبتهم تتحول منبه.

تجاهلت نصيحتها وتبعت قلبي الذي أخطأ مرة أخرى حين أوقع نفسه في الانتظار. استيقظتَ وحدك كما تنبأت صديقتي. خيبة الأمل كانت أنني أردت أن يكون صوتي منبه استيقاظك، لكن رسالتك الّتي أخبرتني بها أنك غادرت فراشك وبدأت تستعد لرحلتك سبقت صوتي وسهري ولهفتي.

قل لي بربكَ أي سحرٍ ألقيتَ على قلبي ليحبكَ ويغفر لك إلى هذا الحد؟

* * *

مرت ثلاثة أشهر، بكل ما فيها من بوح، سهر، ودموع. بكل ما حملت بين طياتها من موت وحب وانتظار. مرت سريعة وبطيئة أحياناً أخرى، ليالٍ ثقيلة وأخرى أخف حملاً. تمنيت أن أموت مراراً، أن أفقد ذاكرتي، أن أتلاشى، أو أهرب، وأبتعد، وأنسى أنني التقيتك، وأنك كسرتني كما لم يفعل أحد من قبل. أنك قابلت لهفتي عليك بالخذلان. وأنك على الأرجح أحببت اهتمامي بك

أكثر مما أحببتني.

لكن تلك الأيام انتهت وانتهى معها الشتاء الذي أوجعنا كثيراً حين غمر جراحنا بملحه، وأغرق قلوبنا بمطره المحمل بالحنين إلى من رحلوا عنا فلم يعرفوا طريق العودة.

أتوجه إلى العمل هذا الصباح وفي قلبي الكثير من الأمنيات التي زرعتها يافا في روحي، ونحن نشرب القهوة في حديقة منزلها. وجهها بشوش، كوردة غارقة في الندى تفتحت قبل ثوان. تبدو أصغر من عمرها بكثير. تجلس على الكرسي المقابل، وتحدق في وجهي بحثاً عن زهرة لوز أضاءت وسط الغياب، والدموع التي أرادت أن تنهمر لسبب ما لا أدركه.

جلسة الأمس في صالون التجميل أتت بنتائج طيبة. كان الأمس طويلاً ومرهقاً. ابتعنا الكثير من الملابس الربيعية الجديدة، تناولنا الغداء في مطعم شعبي كما تمنت، ثم توجهنا إلى صالون التجميل لنكمل جلسات العناية الخاصة بها، وأنهينا نهارنا الطويل بجلسة استرخاء في الحمام التركي.

تجولنا في خلال الأسبوع في شوارع المدينة، البلدة القديمة، الأحياء الفقيرة. بيت عائلتها العتيق. بيت عائلة حسن. مدرستها الثانوية، والابتدائية. مقر الصحيفة التي كانت تكتب لها. مكتب البريد. زرنا كل مكتبات المدينة، واقتنينا الكثير من الكتب. ضحكنا كثيراً بعد أشهر من البكاء، والتقطنا العديد من الصور التذكارية. هذا بالإضافة إلى الهاتف النقال الحديث الذي حصلت يافا عليه وبدأتُ أعلمها طريقة استخدامه.

قبلتها على جبينها حين أنهيت فنجان القهوة وتابعت مسيري إلى عملي. عليّ أن أتحقق من كل صغيرة وكبيرة ليكون البرامج الجديد الذي ستطلقه القناة هذه الجمعة وسأقدمه أنا مذهلاً وناجحاً. سأستضيف يافا في الحلقة الأولى «حكاية غياب ومطر»، بعد غياب خمسة وعشرين عاماً عن عالم الصحافة والإعلام. سوف تقص على المشاهدين تفاصيل عزلتها، وسوف تحدثنا عن روايتها الجديدة، الرواية التي كتبناها سوياً. كانت يافا قد كتبت في خلال الأشهر الأخيرة حكايتها لكنها لم تكن قد خططت لنشرها، وكنت قد كتبت أيضاً تفاصيل حكايتي ومذكراتي في أثناء مراقبتها. كان علي أن أبذل مجهوداً كبيراً لأقنعها بفكرة نشر الرواية، لكن رفضها كان قاطعاً وحين وافقت في نهاية الأمر فضلتْ أن نجمع مذكراتي ومذكراتها في رواية واحدة وهذا ما حدث.

سيكون حفل توقيع روايتنا المشتركة بعد أيام. بدأنا الحملة الترويجية للرواية، وبما أن الفضوليين كُثر فستكون مغامرتنا شيقة.

الشمس تظهر بخجل من خلف الغيوم البيضاء، والشتاء لم يأخذ بعد نسيمه البارد. البراعم الخضراء تكسو الأغصان العارية، وتجهز نفسها لاستقبال الطيور من سفرها الطويل.

زهر اللوز يمنح القرية رائحة لذيذة ولوناً وردياً خلاباً يخطف الأنفاس. ياااه كم تمنيت أن أكون في حياتك زهرة لوز. تحبها ولا تسأمها أبداً. لم أنسَ. ولن أفعل أبداً. لكنني قررت أن أعيش. لأن الموت المجاني لم يخترني بعد، ولأن فسحة الأمل ما زالت تلوح من بعيد أن النهاية حكايتنا «ربما» لم تُكتب حتى الآن.

كانت يافا ترجوني طيلة الوقت أن أستمر في الحياة. أن لا أنطفئ. أن لا أكرر غلطتها الفادحة. أن لا أصير ظلاً خلف جدران صامتة. وحسناً أنني فعلت.

حين قررت ترك العمل، سحبتني من يدي إلى السيارة وأغلقت الباب علي وبدأت تصرخ في الشارع كالمجنونة:

- اذهبي إلى عملك الآن. اقتحمي الحياة بكل قوتك. لا تكرري سذاجتي، الحياة لن تتوقف لأجلك، لن يلتفت لكِ أحد إن انهزمت. واجهي العالم. واجهي الحياة. لا تكوني نسخة مكررة مني.

وذهبت.

ذهبت بقلب ثقيل ومتعب. بروح منكسرة وعيون ذابلة. لكنني اليوم أشعر أن روحي فراشة ملونة، خفيفة كأنها تحررت من العبء الذي كان يرهقها. لا أدرى أين أنت اليوم، كيف هي أحوالك. ولم أعد أحتك بذاكرتي كثيراً كي لا يهزمني الوجع. كان من المؤسف أن كل هذا الحب ضاع سدى، خذلتني مراراً واحتملت وقع الخيبة لأنني أحببتك، وفي المقابل غادرت تاركاً خلفك قلباً يلعن كل ما قدمه لأجلك.

لم أكن أعرف إن كنت يوماً سأغفر لك كل الأذى الذي ألحقته بقلبي، كل الدموع، والانكسار. لا أعرف إن كنت نادمة لأنني لم أسمع نصائح صديقاتي فأوجعك لتحبني أكثر.

كل ما أعرفه أنك لست هنا الآن ولن تعود أبداً. وأن أمامي طريقاً طويلاً علي مواصلته وحدي كما بدأته منذ الأزل وحدي.

كان مصمم الديكور قد أنهى عمله في إعداد الأستوديو الذي سنبث منه مباشرة الحلقة الأولى من البرنامج. كل شيء مدروس بعناية ودقة. الإضاءة الديكور. المقاعد. على هذا البرنامج أن ينجح ليكون بدايتي وخطوتي الأولى. واشعاراً رسمياً لعودة يافا إلى الحياة، نسمع إشعارات الموت كل يوم وفي كل حين تصدح سماعات المساجد بخبر جديد «توفي فلان الفلاني»، لكننا سنكسر روتين هذا العالم ونخبره أنه هناك من يموت وجسده حي يرزق، ثم فجأة تنتفض فيه بذرة الحياة من جديد فيُزهر.

* * *

كنت قد أعددت سابقاً مجموعة من الأسئلة التي سأطرحها على يافا في خلال اللقاء، لكنني لم أطرح إلا السؤال الأول منها لأن اللقاء سار بشكل عفوي، فالأسئلة كانت تُولد في اللحظة ذاتها من خلال حديثنا على الهواء مباشرة. كان كل شيء يسير كما خططت له بل وأكثر. الجمهور الذي حضر في الأستوديو كان مشدوداً لما يرى ويسمع. رأيت عيون كثيرة تبكي. حتى يافا لم تستطع حبس دمعها. فأبكتني معها.

بعد انتهاء الحلقة، تهافت الجمهور على يافا ليسلم عليها ويأخذ توقيعها. وصلتنا الكثير من التهاني. هاتفي لم يتوقف عن الرنين طيلة الوقت وفي كل مرة انظر إلى شاشته فأرى كل الأسماء إلا اسمك.

لم تقتلني الغصة. حاولت ابتلاعها وتجاهل باقة الزهور التي كانت تتحدث بصوتٍ صاخب لألتفت إليها.

ابتسامة مدير القناة كانت باتساع الفضاء. كان مسروراً بالحلقة وردود الأفعال عليها. شد على يدي بحرارة حين صافحني. ولم يقل إلا كلمة واحدة:

- أحسنتِ.

عدنا، يافا وأنا، إلى منزلها بعد انتهاء الحفل الصغير الذي أقامته إدارة القناة في أحد المطاعم احتفالاً بالحلقة الأولى من البرنامج. لم تكن يافا التي اعتادت العزلة مرتاحة كثيراً بهذا الصخب والضجيج، لكنها حاولت تحمل السهرة حتى النهاية. لأن هذه هي الحياة في نهاية الأمر. أمضت أغلب السهرة صامتة تقلب بصرها بين الوجوه.

قالت لي في طريق عودتنا إلى المنزل:

- اشتقت إليه. أعني حسن. صورته لا تغادر مخيلتي أبداً. أشعر أنه الآن بقربي وأنه سعيد بخروجي من القوقعة. كنت دائماً أشعر بأنه معي، لكنه اليوم داخلي أكثر من أن يكون قربي. أحيا بقلبه لا بقلبي. وأتنفس برئتيه. رأيت طيفه بين الحضور اليوم. قد تقولين عني مجنونة. لكنني حتماً لمحت طيفه ولهذا بكيت.

* * *

اليوم سيقام حفل توقيع الرواية. وصلنا القاعة المخصصة لذلك في تمام الساعة الرابعة عصراً. كانت القاعة ممتلئة بالحضور. قراء. كتّاب. اعلاميين. صحافيين. مصورين. زوجات وأمهات شهداء وأسرى شاهدن الحلقة وقررن حضور توقيع الكتاب والحصول على نسخة منه.

شعرت يافا بدوار خفيف حين تحلق الناس حولها ونحن ندخل إلى وسط القاعة المخصصة لتوقيع الكتاب. قدمت لها كوباً من الماء لتستعيد توازنها، ثم جلسنا متجاورتين خلف الطاولة الخشبية كل واحدة خلف اليافطة التي تشير إلى اسمها.

ساعات متواصلة يأتي أشخاص يتحدثون قليلاً أو كثيراً، يوقعون كتبهم ويغادرون فيحل مكانهم آخرون، ويتكرر الأمر حتى ساعة متأخرة حيث فرغت القاعة إلا من عدد قليل من الأشخاص الذين كانوا يريدون التحدث إلى يافا لوقت أطول.

قررت تصفح الرواية حين انهمكت يافا بالحديث إلى آخر صحفي وجد في القاعة. كنت أقرأ حكايتي بين دفتي الكتاب حين شعرت برائحة عطر أعرفها جيداً تتغلغل في أعماقي وتفجر بركاناً كان هادماً. تجاهلت الرائحة وتابعت تقليب الصفحات. حتى فاجأتني اليد التي امتدت بالكتاب.

كنت خائفة ومرتبكة. وشعرت بيافا حين مدت يدها لتأخذ الكتاب لتوقعه أولاً، لكن الكتاب ظل مصوباً نحوي من دون أن تتحرك اليد التي تحمله قيد أنملة. شعرت أن الزمن توقف وأن الكرة الأرضية سكنت وتوقفت هي الأخرى عن الدوران. أصابتني رائحة العطر بالدوار. مر شريط ذكرياتي في خلال هذه السنة كاملاً أمام عيني في خلال لحظات. لم أشأ أن أرفع رأسي. تمنيت لو أن باستطاعتي الهرب من هنا إلى أي مكان آخر. لكن العطر يحاصرني. يأتيني من كل مكان. فيشكل حولي طوق ياسمين. امتدت يدي إلى الكتاب وأخذته بحذر تام وأنا لا زلت أصوب

نظري إلى ركن بعيد. إلى أعماقي.

نسيت كيف يُمسك القلم وكيف يُكتب الكلام. نسيت ما هو توقيعي. ولأجل ماذا أنا هنا الآن. كنت أفكر بهذا الرجل الواقف أمامي من دون أن ألمح وجهه. وكنت أشعر أن يافا والصحفي يحدقان بي باستهجان.

ثم فجأة صدر مني صوت همسٍ لا أعرف كيف خرج ولا من أين أتى، كان خافتاً وبعيداً:

- لمن؟

الإهداء؟

لكنك لم تُجبني بقيت تقف بصمت أمامي كأنك لم تسمع ما قلتْ، فأعدت السؤال مرة أخرى لكن بصوتٍ أعلى هذه المرة وسمعت صوت صمتك جواباً.

هل عدت بعد كل هذا الغياب لتهديني صمتك؟

مللت انتظار الكلمات لتخرج من فمك. فرفعت بصري قليلاً حتى التقت عيناي بعينك فابتسمت لي كما كنت تفعل دائماً حتى انهارت بداخلي كل الأسوار التي كانت تقف بيننا طيلة الفترة الماضية. بقيت تحدق بي لمدة شعرت أنها زمناً أبدياً ثم....

- اكتبي.

إلى حبيبي

يافا

حكاية غياب ومطر

روايـة

نبال قندس

• روائية من فلسطين

- يافا؟! يافا مين؟

يافا راحت يا بنتي، أخدوها اليهود، هالاسم ضاع لما ضاعت البلاد. ضاعت يافا وضاعت البارودة اللي كنا نحارب فيها اليهود.

في تلك اللحظة كدت أصدق أنه «خَرْفن» أو ربما لم يخرفن وإنما يجيب بمكر، لم أتعجب ولا ألومه ففي هذه الأيام يخشى الجميع من أي سؤال يطرح حتى لو كان «شو طابخين اليوم». فالمخبرون ينتشرون في كل مكان ويسجلون ما قيل وما لم يُقل، والسجون لا تستثني أحداً لا طفلاً ولا كهلاً... ولديها دائماً متسع لمساجين جدد. كل كلمة تقال تصل إلى الآخرين وقد صارت قضية كبرى، يبدأ الكل بتحليلها لقياس مدى علاقتها بالوضع السياسي.

من الصعب على الناس الحديث في أي موضوع كان، فآذان الحيطان تصغي والسجون، على استعداد لاستقبال الجميع. السجون واسعة. أوسع من الوطن.





ISBN 978-614-01-1339-8

9 786140 113398





توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

